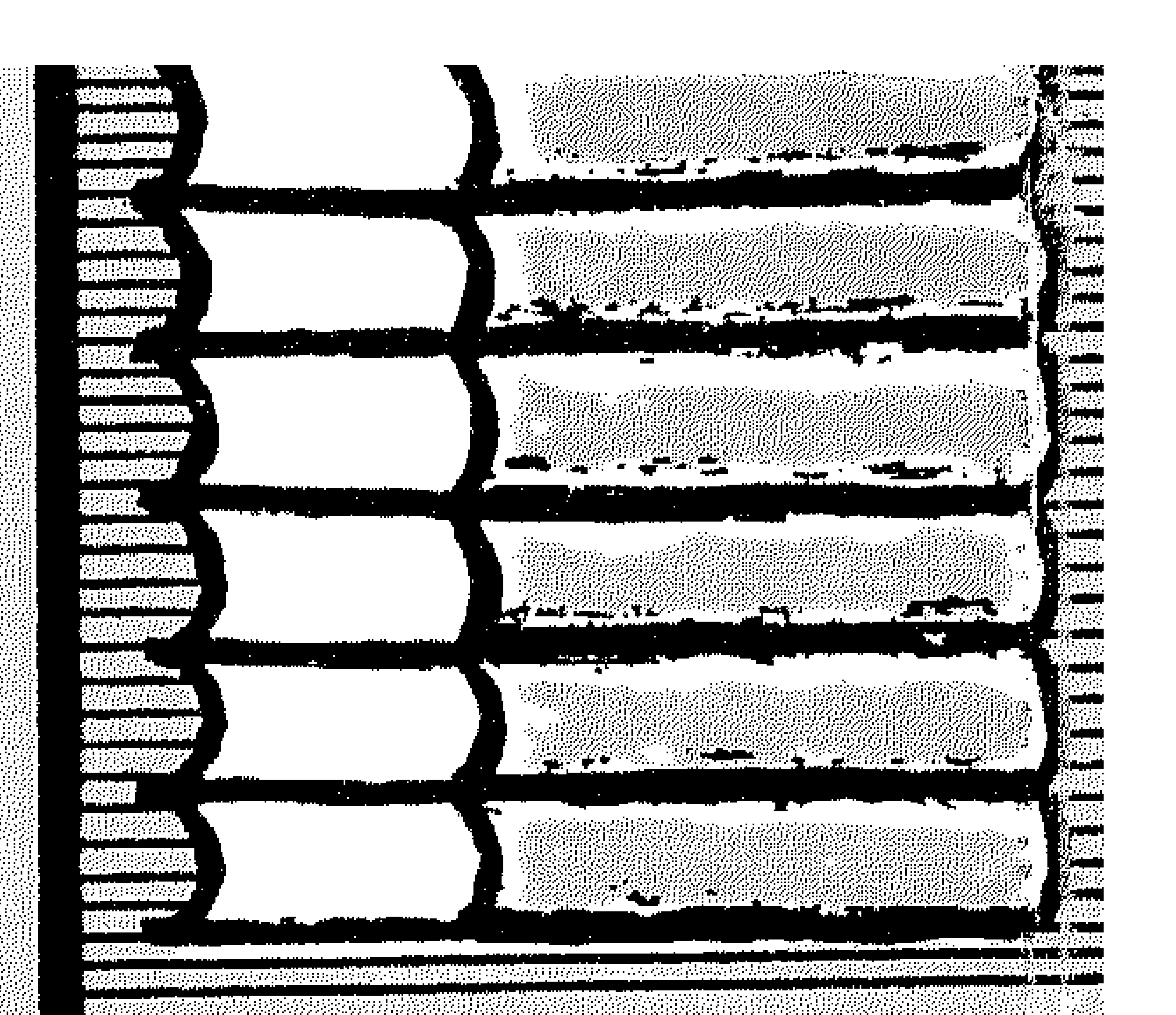
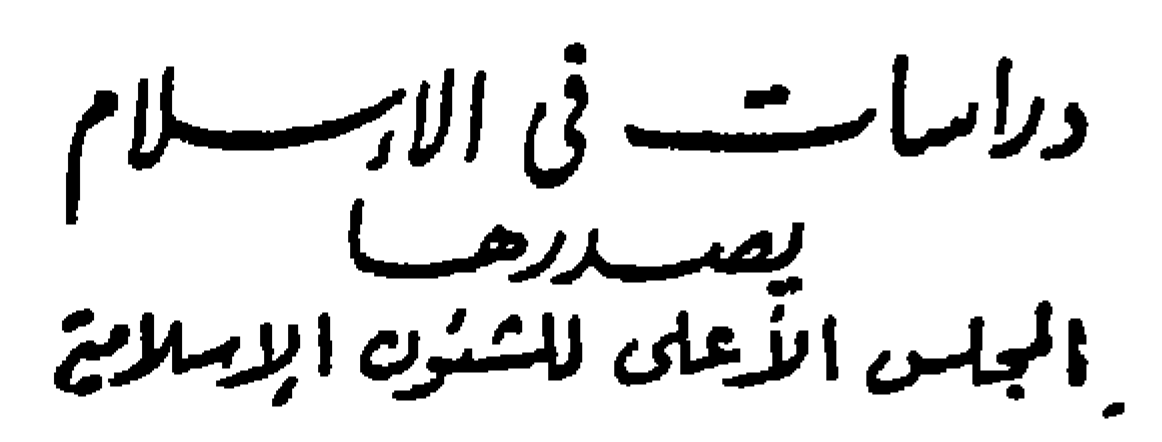
دراسات فى الإسلام
يصدرها
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
القاهرة



المساواة فى الإسلام و المدنية الغربية

الأستاذ
عبد المنعم النمر

العدد التاسع والثلاثون





المساواة فى الإسلام و المدنية الغربية

الأستاذ
عبد المنعم النمر

((٣٩))
السنة الرابعة
١٥ من جمادى الآخر ١٣٨٤ هـ
٢١ من اكتوبر ١٩٦٤ م

يشرف على إصدارها
محمد توفيق عويضة







« المُسلمون تَتكافأُ دِماؤهُم .. يَسْعَى بِذِمَّتِهمْ ،
أَدْنَاهُمْ ، وهم يَدٌ على مَن سِواهم »

(حديث شريف)

بين يدى البحث

المساواة : كلمة تتردد على الألسن كثيرا ، ولها جرس ونغم محببان للقلوب ، لاسيما قلوب المغبونين والمضطهدين ، فهم يرون فيها السعادة التى يبتغونها ، والامل الذى يرجونه ، يعيشون يحلمون بها ، وبالراحة التى ينشدون فى ظلها ،ويرى فيها دعاة المثل العليا ، السبيل الى انقاذ البشر ، مما يترددون فيه من ظلم واعنات ، وقهر واعتداء كما يرى المجاهدون فيها الهدف الذى يرمون اليه ، ويقاتلون دونه ويبذلون دماءهم رخيصة فى سبيله .

وهناك غير هؤلاء أناس يرون فيها السم الذى ينغص عليهم حياتهم ، والهواء الخانق الذى يكدر صفوهم ، وهم الحكام المستبدون ، والمترفون المتكبرون المتغطرسون ، يرونأن المساواة كلمة ممقوتة ، وشبح مخيف ، ونغمة مرذولة ، يطلقها أناسذوو أغراض سيئة ، ويتشدقون بها لمصلحة لهم فيها ، بينما هى الشر الوبيل ، والخطر المستطير ، فهى قلب للاوضاع الطبيعية بين الناس ، وقد خلقهم الله متفاوتين ، وهى وضع للخدم بجانب الأسياد ، وتطاول قبيح من الفقراء على مكانة الأغنياء فكل من يدعو اليها اذن ثائر على الأوضاع ، عامل على قلب النظام

يجب قمعه بشدة والحيلولة بينه وبين غرضه وشهوته وشره ، حتى يبقى النظام الطبيعي سائدا سائرا فى مجراه ، آمنا من الأخطار والعقبات •

وهكذا تكون المساواة أملا موجودا عند قوم ، وشرا مستطيرا عند آخرين — وترك الامور هكذا لأهواء الناس ، ومصالحهم الخاصة ، شيء ينافي العدل والأمن والاستقرار ، ولذلك كان لابد من تحديد أو تقريب لمعنى المساواة ، يتفق عليه حتى لاتكون سببا فى خلق فتن ومنازعات بين البشر دون وجه حق مشروع •

وقد جاءت الأديان فحددتها ورسمتها ،وبينت معالمها ، كما حاولت القوانين البشرية أن تحدد وتبين معالمها كذلك •

ولقد خلق الله العباد متفاوتين فى كثير من الصفات والاستعدادات ، حتى لانجد انسانا يتفق مع آخر فى كل شيء ، ولو كان أخاه ، بل ولو كانا توأمين ، فلابد أن يكون بينهما تفاوت فى الجسم والاستعداد المادى والفكرى ، وفى الخلق والطباع فمن المحال اذن وقد خلقهم الله متفاوتين ، هكذا أن يسوى بينهم فى حظهم من الحياة فى كل ناحية ، بحيث لاتجد فرقا بين قوى الجسم وضعيفه ، وبين العامل النشط ، والعامل الكسول ،وبين الذكى والغبى ، وبين الخبيث الطيب وبين العالم والجاهل •

وقد نطق القرآن بهذا الأمرالواقع المقرر ، فزاده تقريرا فقال : **((قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون)) وقال : ((قل لايستوى الخبيث والطيب ، ولو أعجبك كثرة الخبيث)) •**
فبهذا النطق الحكيم ، والدستور السليم يقر الله الحق والعدل ، الذى يجب ان يسود فى الأرض ، كما يقرر الأساس الذى تجرى عليه محاسبة خلقه يوم لقائه ، ويعلمهم كيف يقيس بعضهم مقدار الآخرين فى الدنيا ، وهو مقياس مبنى على الفضائل الخلقية والجهود الفردية •

فالمساواة التى لاتحدها حدود ولاقيود ، كلمة خياليةلاسبيل الى تحقيقها ، بل لايستقيم نظام الكون بحال منالأحوال فى ظلها .

فلابد ــ اذن ــ من التحديد والتقييد ، وهكذا الفضائل جميعها برزت معالمها على أساس من التحديد والتقييد ، فهى لاتكونفضائل الا اذا دخلت فى اطار يحددها ، ويبرز معالمها ومن هنـــا قال الفلاسفة من قديم : ان الفضائل حد وسط بين رذيلتين ، وقـــرر القرآن الكريم ذلك نصا فى بعض الفضائل التى مدحها ، حيث يقول :((**ولاتجعل يدك مغلولة الى عنقك ولاتبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا**)) ويقول فى آية أخرى فى وصف عبـــاد الرحمن المعتدلين : ((**والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما**))

فالانفاق فضيلة ، اذا احطناه بهذه القيود التى ذكرها القرآن وأدخلناه فى الاطار الذى يحفظ توازنه ويظهر رونقه ، ويمنـــع من التغالى والانطلاق فيه حتى لايصير تبذيرا واسرافا ممقوتا ،كما يمنع من الامساك والشح حتى لايصير بخلا رذيلا .

والحرية كذلك محبوبة ، يهيم بها الناس ــ بل والحيوان ــ ويرون فيها سعادتهم ولذتهم ولكن هذه الحرية لايمكن أن تحقق للناس سعادتهم ، الا اذا أحطناها بالقيود التى تحددها وتجعلها نافعة ومثمرة والا انقلبت الى فوضى مدمرة وشقاء يعصف بكـــل راحة ، ويذهب بكل أمن وطمأنينة أو انتكست الى استبداد ،وظلم وارهاق يسلب الانسان انسانيته ويجعله فى الحياة ذليلا كالانعام أو أحط درجة منها .

***

والمساواة : فضيلة حينما نضعها فى موضعها الجدير بها ، فلا نجعلها مساواة مطلقة ، نهدر بها كل الفروق والجهود فنضع المحسن مع السيء ، والمجد مع الخامل الكسول ــ كما أننا لانلغى

كل مظاهرها ونحوالها الى ظلم طبقة لطبقات ، تتمتع تلك الطبقة بكل شيء ونحرم الأخرى كل شيء ، فتصير حينئذ استبدادا ،وظلما واعناتا ، وقهرا وجبروتا ، فالمساواة وسط بين الفوضى التى يضيع فيها كل جهد ، وبين التعنت والاستبداد الذى يعطى فردا اوطبقة كل شيء ويحرم الآخرين كل حق .

فهذه القيود التى لابد منها ، لكى تجعل من تصرفاتنا فضائل محبوبة هى موضع اختلاف واسع بين المشرعين ... وينشأ هذا الاختلاف من نفس التفاوت بين المشرعين فى حظوظهم من العلم والتجربة ، ومن رغبتهم فى الخير والنفع ، أو وقوعهم تحت سيطرة الهوى والغرض والجهل ، وبمقدار حكمة المشرع ، وحبه للخير واحاطة علمه ، وسعة خبرته وتجاربه ، تثمر الفضائل وتكون خيرا وبركة على الناس .

هدف البحث :

وحظى من هذا البحث أن أوضح نظرة الاسلام الى المساواة والقيود التى قيدها بها ،والأطار الذىأحاطها به ، كى تكون جميلة مثمرة نافعة — كما أوضح نظرة المدنية الغربية اليها ومقدار عملهم فى نطاقها والى اى مدى وصلوا فى معاملة الناس على أساسها .

سأقارن بين ماوصل اليه المسلمون — كأصحاب فكرة وعقيدة يعملون فى نطاقها — فى حياتهم العملية ، من تطبيق فكرة المساواة سواء فى وسطهم أم فى معاملتهم للمغلوبين على أمرهم ممن ليسوا على دينهم ، ولا من جنسهم ، نقارن بين ذلك ،وبين ما وصل اليه الغرب فى معاملته للشعوب المغلوبة ، بل للطبقات المختلفة داخل الشعب الواحد ، لنرى الى أى حد وصل الاسلام والمسلمون ؟ ووصلت المدنية الغربية والغربيون فى معاملة الناس

وأيهما كان خيرا وبركة على الأنسانية وأشد قربا من المثـــل العليا التى ينشدها الانسان فى هذه الحياة ويعشقها ويعيش يحلم بهـــا ٠

أيهما حقق للانسان آماله وأحلامه ؟ ألاسلام أم المدنيـــة الغربية ؟

الدافع لهذا البحث :

ولقد دفعنى الى هذا البحث المقارن تلك الموجة الفكرية التى استولت على الأذهان ، وغرست فيها أن الثورة الفرنسية هى الأم الأصيلة للمساواة ، وهى التى حققت للانسانية المعذبة آمالهـــا وأهدافها ، وقررت لها حق الأخاء والحرية والمساواة مما جعـــل الناس مسلمين وغير مسلمين ، يعتبرونها المنبع الأصيل للحرية ، والباعث الأول للاخاء والمساواة ، فأشادوا بها ، وأحيوا ذكراها ، واعتفرفوا بالفضل كله لفرنسا ثورتها ورجالها ٠

ونحن لاننكر على هؤلاء أن يقروا بفضل لفرنسا وثورتها ،فقد كانت بحق الشرارة التى انتشر منها اللهب فى أوربا ليحـــرق الظلم ويقضى عليه ، ولكن الذى ننكره على هؤلاء أن يقفوا عنـــد هذا النظر القصير فى التاريخ ، فلا يرجعوا ببصرهم الى ما قبـــل ذلك بألف عام فى الجزيرة العربية والامصار الاسلامية ، حتى يعرفوا من أين شبت الثورة الحقيقية على الظلم والاعنات والقهـــر والاستبداد ، ويعرفوا كيف قاد محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ هذه الثورة بتوجيه من الله الحكيم الخبير ليقرر حق الانسان فى المعيشة الحرة الآمنة السعيدة ، ويعلم الانسانية النشيد الربانى الأخوى الذى يجب أن يهتف به كل انسان من أعماق قلبـــه ، الخبير بالنفوس الذى خلقها ورعاها ، وعلم مايصلحها ويفسدها ، ويرغاه بدمه وروحه ، ويقرر حق الاخاء والحرية والمساواة بتوجيه

نعم : نطالب هؤلاء الذين وقفوا عند الثورة الفرنسية ، أن يسيروا قليلا ويوسعوا مداركهم ويبحثوا فى الثورة الاسلامية التى سبقت الثورة الفرنسية بألف عام ، وبعد ذلك لهم ان يقارنــوا٠

فأنني أعتقد أن هؤلاء حينما تتاح لهم فرص الدراسة الحقيقية للوثبة الاسلامية التى دفع الاسلام أتباعه اليها ، وحينما يتـــاح لهم أن يعرفوا عن الاسلام مبادئه ومثله العليا ، ثم كيف صــارت هذه المبادىء ، وهذه المثل ، حقيقة واقعة فىالمجتمع الاسلامى أقول او أتيح لهؤلاء ان يدرسوا ويعرفوا لأصبح أمرهم علىالعكس مما نراه منهم الآن ، ولقاموا يشيدون بمبادئهم الاسلاميـــــة ، ويدعون الناس أن يهدفوا اليها ويحققوها فى حياتهم ٠

***

ترون اذن أن من واجبنا أن نفتح العيون والقلوب الى مافى الاسلام من مبادىء ، ومثل سابقه ، سبق بها كل دساتير العالم ، وأن نقدم لأمثال هؤلاء المفتونين بالغرب ، المثل الحقيقية الواقعية من تاريخ المجتمع الاسلامى ٠

فان الاكتفاء بسرد النظريات والمبادىء ، قد يقصر عن الغرض بل قد يفتح علينا بابا من الاعتراض يتعلل به المفتونون بالغرب ، وبما علموه عن دساتيره ونظمه فيقولون : نظريات تحكونها عــن الاسلام ولم يكن لها وجود فى عالم الواقع !

فالأمثلة الواقعية اذن لابد ان نستعرضها ، فان ذلك هو الطريق الوحيد لكسب ثقة الناس وايمانهم بمبادىءالاسلام واحياء املهم فى عودة هذه المبادىء الى الوجود مرة أخرى ، يوم تجد لها اتباعا متحمسين يفنون فى سبيلها بعد أن يفهموها حق فهمها ٠

الرسل والمساواة :

ولقد دفع الناس الى تنسم عبير المساواة وتقدير كل من يدعو اليها ويعمل بها ــ مالمسوه من ظلم القوى للضعيف ، بما جبلت

عليه النفوس من التعالى والكبرياء ، وما طبعت عليـــه من الأثرة واغتصاب الحقوق ، حتى ليتمثلون دائما بقول الشاعر العـــربى الذى صور النفوس فاجاد تصويرها حين قال

والظلم من شيم النفوس فان تجد ذاعفـة فلعـلة لا يظلـم

ولذلك كانت وظيفة الأديان والرسل الكرام عليهم الصـــلاة والسلام ، هى الحد من هذا التعالى ، وكسر شوكة التكبر ،والحيلولة بين الناس ، وبين اغتصابهم الحقوق، ثم غرس الاخلاق الفاضلـة التى تشيع فى جوانب النفس معانى الحب للغير ، وتقـــدير مصالحه واعطائه حقوقه ٠

ومن أجل هذا تصادمت الطبيعة البشرية الميالة للتكبـــير ، واغتصاب الحقوق ، مع الاديان والرسل من قديم ، منذ هبـــط الانسان الأول الى هذه الأرض وعمرها وارتبطت مصالحه بها ، مما جعل حياة الرسل والداعين بدعوتهم سلسلة من المتاعب والمشاق والجهود المضنية ٠

ومن الملاحظات الجديرة بالتسجيل أن الذين كانوا يخلقون المتاعب للرسل والدعاة ، ويقفون فى وجوههم ، ويحولون بينهم وبين نشر مبادئهم انما هم الأثرياء الأقوياء أصحـــاب السلطان والمصلحة الـذين حلا لهم أن يستذلوا النـــاس ويستعبدوهـم ويغتصبوهم حقوقهم ، ويسخروهم لأغراضهم ، فأصبحوا لذلـك لايطيقون أن يسمعوا صوتا يرشدهم ، ليكفكفوا من غلوائهم فى ظلم الناس ، ويقفهم عند الحدود المشروعة ، ويسوى بينهم وبين كافة الناس فى الحقوق والواجبات ٠

نعم لم يطيقوا أن يسمعوا مثل هذا الصوت الناصح المرشد ، وتصوروا فيهأنهجاء يسلبهم حقوقهم ،ويحول بينهم وبين استعمال هذه الحقوق ٠

فكان الصراع العنيف الذى شب بين رسل الله الكـــرام وأتباعهم الحريصين على استقرار الحق والعدل والأخـــاء وبين المترفين المستكبرين الذين لايعرفون هذه المعانى ، ولا يقرونها

وقد سجل القرآن الكريم هذا الصراع الذى دام على مر القرون حينما سرد قصص الرسل السابقين مع أقوامهم ، وابرز لنـــا مواقف هؤلاء وهؤلاء ، حتى ليرى القارىء من خلال ذلك صورامن الكفاح المرير ، والجهاد الشاق الذى قام به رسل الله الكرام ، لاقرار الحق والعدل والمساواة بين الناس ٠

وقد ساق الله كل هذه القصص ليعطى قارئها العظة والعبرة مما يذكره فى نهاية كل قصة من المصير المؤلم للطغاة المتجبرين ، الذين يظلمون الناس ويبغون فى الارض بغير الحق ، الـــذين أبوا أن يعترفوا لغيرهم بحقوق ، بعكس مايسجله للمؤمنين المتواضعين المتخلقين بخلق المرسلين الذين يشعرون فيما بينهم بشعور الأخاء والمساواة ويأنفون من الظلم والكبرياء ٠

لعل قارئى القرآن وسامعيه بعد أن يعرفوا مصير هذا وذاك، يختارون لأنفسهم المصير السعيد، الذى يجعله الله دائما للمتآخين المتحابين الواقفين عند حدود الله ٠

وكان هذا الاسلوب القصصى المؤثر من أساليب التربية الحقة لامة محمد صلى الله عليه وسلم وصدق الله العظيم حين يقول :

((لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الالباب))

***

تربية الاسلام للناس :

لاشك أن روح التآخى والمحبة التى تسود جماعة من الجماعات انما تنبع أولا من نفس الانسان ويساعد على تكونها فيه الأساليب التربوية التى يؤخذ بها ، ويربى على أساسها ــ ولذلك لاتعتمـــد

الأديان فى غرسها على القوة والعقاب ولكنها تعتمد أولا على تهذيب النفس ، واشعارها بما بينها وبين أخواتها من صلة وتجاوب وبما يترتب على هذا من سعادة وراحة وأمن ، وطمأنينه فى الدنيـــــا وفى الآخرة ، ويضع بجانب ذلك ما يترتب على فقدان هذه الروح من شقاء ، وتطاحن بين الطبقات ، يحيل الحياة الى جحيم لايطاق ويسلك الدين الى غايتـــه كل السبل التى تؤدى اليها .

وقد سبق أن بينا كيف اعتمد القرآن فى كسر شوكة التكبر والتعالى ، وغرس روح التآخى والمحبة ، على ماقصه عن المتكبرين السابقين ، ومصيرهم السىء .. ولم يكتف الاسلام بهذا بل انه اتخذ وسائل عدة لبلوغ غايته من ربط الناس جميعا برباط الأخوة والمساواة ..

مساواة البدء والمعاد :

فمن ذلك مانراه متجليا بصورة واضحة فى آيات كثيرة من القرآن ، وفى عدة أحاديث ، تتكلم كلها عن نشأة الانسان ،وأصل وجوده لتفهم هذه الملايين من الناس أن اصلهم واحد ، وان تفرقـــت بهم السبل وباعدت بينهم اللغات والألوان والأجناس والعقائد فهم جميعا من آدم وآدم من تراب ، وقد اتفقوا جميعا فى كيفية الخلقة ، فهم من نطفة من ماء مهين ، ثم من علقة ، ثم من مضغـــــة وكل منهم تطور فى الرحم نفس التطور الذى سلكه الآخر ، لافرق بين أى انسان وآخر .. لم يتميز واحد منهم عن زميله فى أصـــل وجوده ، فاذا دقق الانسان النظر جيدا فى هذه النشاة المشتركة ثم عرف بعد ذلك أن المصير والمآل واحد مشترك ، حين يموت كل انسان دفعته الأرحام الى هذه الحياة ، أقول : اذا دقـــق الأنسان النظر فى هذا جيدا عرف قيمته وقيمة الآخرين ،وخفف من غلوائه وكسر من كبريائه ، ولم يلتفت كثيرا الى عوامل التفاوت

التى تطرأ فى مرحلة الحياة فتفتن كثيرا من الناس ، وتضلهم عن سواء السبيل ، وتبعدهم عن التفكير فى الأصل المشترك والمصير المشترك ٠

يقول الله سبحانه ((**والله خلقكم من تراب ثم من نطفة**)) ويقول ((**ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين**)) ويقول فى موضع آخر ((**وبدأ خلق الانسان من طين ، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ، ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والابصار والافئدة**)) ويقول ((**انا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا**)) وفى آية أخرى يذكر اصل الانسان وكل تطوراته حتى يخرج من هذه الحياة من نفس الباب المشترك الذى يخرج منه الجميع كما دخلا أولا جميعا فيقول ((**يأيها الناس ان كنتم فى ريب من البعث فانا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة ، لنبين لكم ونقر فى الأرحام مانشاء الى أجل مسمى ، ثم نخرجكم طفلا ، ثم لتبلغوا أشدكم ، ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد الى أرذل العمر**)) ٠

ويقول فى موضع آخر ((**يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء**)) وفى هذه الآية يوضح لنا كيف اشتركنا على كثرتنا فى أب واحد وأم واحدة تناسلت منهما جميع الأجناس البشرية ٠

ولأجل أن يثبت الله فى نفوسنا جميعا هذا المعنى بقوة ، أعنى معنى الشعور بالأصل الواحد : التراب وآدم وحواء ــ خاطبنا نحن فى كثير من هذه الآيات فقال ((**والله خلقكم من تراب**)) ((خلقناكم من تراب)) ، ((خلقكم من نفس واحدة)) ((خلقناكم من ذكر وأنثى)) مع ان المخاطبين بهذه الآيات لم يخلقوا هم انفسهم من التراب أو من آدم وحواء ٠ ولكن من آبائهم وأمهاتهم ، ولكن

سلك الله فى الخطاب هذا المسلك القوى ، ليلفت أذهان المخاطبين فى قوة الى الأصل المشترك الذى نسوه ، وكادوا ان ينكروه ، وهو التراب ، وآدم وحواء ، حتى يهدر الانسان كل اساليب التفاوت ، ويعبر القرون والأجيال الى الزمن الأول ، الذى بدأ فيه خلق الانسان من طين ·

وقد وضح الله فى آية من هذه الآيات الكثيرة الهدف الـذى أراده من خلق الانسان ومن اشعاره بكيفية خلقه ، وهو التعارف والتآلف فقال :

((يأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعـوبا وقبائل لتعارفوا))

نعم لتعارفوا وتتآلفوا وتتغلبوا على عوامل الفرقة والانقسام وتعيشوا كأسرة واحدة برغم تفرقكم الى قبائل وشعوب ·

وكل من يقرأ هذه الآيات ، ويستشعر معانيها يصـل الى هدفين :

الهـدف الأول أن أصـله تراب ومـاء مهين قـذر ، تعـافه نفسه وتنفر منه ، وتتحاشاه بل تتحاشى ذكره ، فكيف ينسى هذا الأصل ؟ وتفور · نفسه بعوامل الكبرياء ، فيطغى ويتجبر ، ويتعالى على اخوانه الذين خلقوا مثله من هذا الماء المهين ويتعالى عـلى خالقه الذى سواه ونفخ فيه من روحه فينسى أوامره ، ولايخضـع لتوجيهاته ؟ ·

ولاشك أن تذكير الانسان بنقطة مهينة فى حياته أو فى أصل من أصوله ، يكسر من حدته وكبريائه ، ويجعله يتضاءل كالكرة المنفوخة حين تغمزها من جانب بدبوس ، فتأخذ فى التضاؤل حتى تفقد تكورها وانبعاجها وقدرتها على التدحرج والعلو السريع فى الهواء ·

فتذكير الانسان بأنه من تراب ، ومن نطفة من ماء مهين ،لاشك يحد من كبريائه وتعاليه ، ويجعله يحس يتضاؤل فى نفسه ، وانكسار فى شوكته ، فيتراجع عن ظلمه وبغيه على الناس ، لاسيما حين تتفاعل نفسه بالشعور الآخر ٠

والهدف الثانى ، من أهداف هذه الآيات ، وهو شعور الأخوة والتساوى مع الآخرين الذين يظلمهم ويتعالى عليهم ٠

فحين تنفعل نفسه بهذين الانفعالين ، أعنى انفعال التضاؤل فى نفسه ، وانفعال التساوى مع الآخرين فى الأصل ــ ينتج عن ذلك شعور بالعطف أو بالأخوة والمحبة ، مع هؤلاء الآخرين مهما يكن فى يده من مال أو سلطان ، ومهما بلغوا هم من الفقر والضعف

وهذا هو الهدف الأكبر من هذه الايات وتكرارها فى القرآن بجوار مالها من أهداف أخرى ٠

أكرمكم عند الله أتقاكم :

وانك لتجد هذا مسجلا وموضحا فى قول الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ٠٠ « لا فضل لعربى على عجمى ، ولا لأبيض على أسود الا بالتقوى أو بعمل صالح ، كلكم لآدم وآدم من تراب » ففوق مايشعرنا به الحديث من وحدة الأصل ، يشعرنا كذلك بنقطة هامة فى تكوين شعور المساواة بين الناس ، وهى جعل التفاضل بينهم بالعمل والكد ، لا بالمال ولا بالسلطان ، فلا مجال لأن نفخر بأصول تفاوتت فى مظاهر تافهة ، من لون أو جنس أو مال أو منصب ، لان الأصل الأول واحد ٠ وانما مجال الفخر والتفاضل انما هو مايبذله الانسان من جهد لاسعاد نفسه والآخرين من حوله ، فكأنهم جميعا ــ وقد ولدوا من أصل واحد ــ قد وقفوا عند نقطة واحدة من حلبة السباق ثم انطلقوا جميعا يتسابقون ، والفضل منهم للكفء الذى يحقق من العمل المثمر اكثر مما يحققه الآخرون ٠

وربط الاسلام لقيم الناس بما يحسنونه من عمل ، هو تقدير للقيم العليا فى الانسان ، الذى خلقه الله ليكون خليفة فى الأرض وتركيز قوى لمعنى المساواة فى النفوس ــ كما اراده الله ــ حتى لا يكون هناك مجال لتفاخر بنسب أو مال أو غطرسة بمركز وسلطان .. وهذا المعنى الذى قرره الاسلام من قديم ، هو الذى تجاهد المجتمعات الواعية فى كل الدول الآن ، لاقراره وتتباهى روسيا بأنها قد تبنته وربطت قيم كل فرد فى شعبها بما يجيده من عمل ، وبما يؤديه من خدمة للمجموع . ووضعت على ذلك لافتة ضخمة باسم المساواة ، لتجذب الناس وتغريهم بمبادئها ، مع أن الاسلام قرر ذلك من مئات السنين .

ولعلنا بهذا ندرك السر فى نظم الآية الكريمة ، حين أعلنت أن الناس جميعا من أصل واحد ، ومن الواجب عليهم أن يتعارفوا ويتعاونوا ثم أعلن فى ختامها أن الكريم عند الله هو الذى يتقن عمله ويتقي سخطه ، وكلما ازداد الانسان اتقانا فى عمله ازداد الى الله قربا .

دروس عملية

هذه دروس نعيها من تلاوة القرآن ، وبجوارها دروس أخرى عملية ، لغرس روح المساواة فى النفوس ، وكسر شوكة الكبرياء فيها ، وتجد هذه الدروس واضحة جلية فى العبادات ، وفى أوامر أخرى كلفنا الله بها .

الصلاة :

ففى الصلاة : درس عملى واضح يظهر فى الصف الواحد ، الذى لا اعوجاج فيه والذى يتحرك بتحركات الامام ، ولا يحب الله أن يظهر فى الصفوف خلل أو عوج ، كما لايحب أن يتقدم تابع

على امام ، ولم يجعل الله فيها مكانا للملوك ومكانا للسوقة ، ولكن ترك كل انسان يقف كما يريد ، لايأنف من انسان آخر يقف بجانبه ، ودعاهم الى أن يتسابقوا الى الصف الأول وراء الامام ٠

وجعل من أركان الصلاة السجود ، وهو أهم مظهر للعبودية والذلة لله ٠

فجبهة الانسان ، هى أعز واكرم شيء فيه ، يضعها على الأرض وقد يعفرها بالتراب فى هيئة قد يستحى الانسان من فعلهـــا فى غير الصلاة ٠

وامتحن نفسك ، وضع جبهتك على الارض فى غير الصلاة وانظر مايدور فى نفسك ، هل تقبل على ذلك بانشراح ، أو تجـــد غضاضة فى نفسك فى أن تظهر بهذا المظهر الذى نفعله فى الصلاة حين السجود ، ومع أنك تأنف بان تفعل ذلك خارج الصلاة ، فانك تقبل بنفس راضية على فعله وأنت فى الصلاة ، وتمـرغ جبهتك فى التراب ، وتقول « سبحان ربى الأعلى ، سجد وجهى للذى خلقه ، وشـــق سمعه وبصره بحوله وقـــوته تبارك الله احسن الخالقين » وتكون سعيدا حين تؤدى هذا السجود فى اليوم والليلة أربعا وثلاثين مرة على الأقل ٠

هذه الجباه التى تسجد ، وتلاصق مواطىء الأقـــدام ، وقـــد تلتقى بها أقدام المصلى أمامها هل تقبل ذلك فى غير الصلاة ؟ ٠ وهل تذل وتتعفر بتراب الأقدام الا فى الصلاة ، وهل أعفى الله من ذلك انسانا ، واو كان حاكم الدنيا بأسرها ؟ هل استثنى مخلوقا ، لأنه عزيز كريم ، لايطيق أن يضع جبهته فى الرغام عند مواطىء الاقدام ؟ ٠٠ كلا ٠٠ ثم كلا ٠٠ فالجميع فى هذا سواء ولا يقبـــل الله من الانسان هذه الصلاة ولا يثيبه على فعلها ، مالم يكن مخلصا فى ذلته له ، وانكساره لجنابه ، مالم يكن سعيدا ، قرير العين بوضع جبهته عند مواطىء الاقدام ٠

والذى يشمئز من ذالك أو ينفر منه ويتضجر ، لايتقبل الله عمله مهما أسرف فى عدد الركعات ، ولعل هذا هو السر فيما قاله الرسول عليه الصلاة والسلام « أقرب مايكون العبد من ربه وهو ساجد » نعم ، وهو ساجد بجبهته على الأرض ، بهذه الهيئة التى لاتستحسن منه الا حين يناجى ربه وخالقه ، ويشعر نفسه بذلته وحاجته اليه ، وهل توجد فى الصلاة صورة أخرى أظهر من هذه الصورة فى معنى الذلة والعبودية والمساواة .

وفى الصلاة التى يظهر فيها المصلون صفا واحدا ، لاينظر الله فيها الى المظاهر ولا الى قيمةالانسان ومركزه فى الحياة ،ولكن ينظر الى معنى كريم ، اسمى من كل مافى الدنيا من مظاهر هو الاخلاص لله والناس صفاء القلب من الأحقاد والأضغان ،الاتجاه لله وحده فى عمله وخلو نفسه مما سواه .

وهنا تبدو المساواة أمام الله بشكل قوى ، فرب أمير أو سلطان أو صاحب ملايين ، يقف بجانب فقير ضعيف رث الثياب مغبر الوجه ، فيدعو هذا ويدعو ذاك فيتقبل الله من الفقير المغبر الوجه المخلص القلب ، ولا يتقبل من صاحب السلطان ، لأن قلبه مشتغل بغير الله ، ولأنه يؤدى الصلاة رياء وخوفا من كلام الناس ، أو لأنه .. ولأنه « ورب اشعث أغبر ذى طمرين لو اقسم على الله لأبره » لأنه أخلص لله ووهب روحه وحياته فى سبيله ، ومن أجل مرضاته ، فأكرمه الله .

وحين يفهم الغنى والفقير هذا المعنى ، يستشعر كل منهما روح المساواة الحقة ، أمام الله فيعلو الفقير بنفسه الطيبة ، ويهبط الغنى القوى ، ويكسر من حدة نفسه المتعالية ، فيتلاقى مع أخيه الفقير فى وقفة خاشعة أمام الله ، وهنا يتجلى بشكل قوى فى فى النفوس معنى المساواة .

أليست الصلاة بعد هذا درسا عمليا قويا فى غـــرس روح المساواة والاخاء فى النفوس ؟

الصيام :

ثم تعال معى بعد ذلك الى الصيام الذى فرضـه الله على كل مسلم يستطيعه ، هل أعفى منه الغنى المترف ؟ وجعل بدله هبـة من المال يدفعها للفقراء ؟ كلا .

هل جعل للغنى نصف يوم ولغيره اليوم كله .. وهل وهل؟ .. لاشىء من ذلك ، وانما فرضه على كل مستطيع ، وجعل البـدء والنهاية واحدة للجميع من الفجـر الى الغروب ، وما أجمل منظر الملوك وأصحاب السلطان ، حين يقفون مع خدمهم ، ينتظرون وقت الافطار ، مساواة لا نظير لها ، يشعر الفقير بحلاوتها ، حين يحس أنه مع مليكه سواء أمام أمر الله .

وتحضرنى بهذه المناسبة ذكرى جلسة افطار مع احد رؤساء الدول العربية ، وكنا قبيل المغرب ننتظر وقت الأفطار وأمامنـا اطباق الفاكهة فتناول تمرة وامسك بها ، ينتظر حضور الوقت، وأنا ومستشاره معه على المائدة ، فقال وهو ينظر الى التمرة فى يده : يقال ان هذه التمرة تسـبح الله الآن وهى فى يدنا ، قلت له أن امساككم بها ، وامتناعكم عن أكلها مع الرغبة فيها ، امتثالا لأمر الله انما هو التسبيح والعبادة لله الواحد القهار

الحج :

ثم تعال معى الى الحج ، وفيه الدرس الأكبر للمسلمين فى المساواة ... لابد أن يتجرد الجميع اثناء ادائه من ملابسهم ، ثم يسترون أنفسهم بسترات متشابهة ، قدكشفوا رءوسهم ، وخلعوا

أحذيتهم ، ولبسوا أحذية متشابهة كذلك ، ليس فى ذلك كله مجال للأناقة ، ولا لمظهر الغنى ، ويسيرون يؤدون جميعا أعمال الحج ، دون تفرقة !؟.

هل تعرف الغنى من الفقير ؟ هل تعرف الامير من الخفير ؟
هل تعرف الملك من السوقة ، لو تجرد عن حراسه وسار كفرد من أفراد شعبه ؟

هل تحس على أحد آثار نعمة كبرى من الملابس وتحس على الآخر آثار فقر مدقع ؟

هل يحمل أحد نياشينه ؟ هل يشعر أحد فى شكله وملبسه بما يميزه عن الآخرين .

ياسبحان الله !! لقد كنت اخطىء معرفة اخوان لى ، حين تجردوا من ملابسهم ، وساروا كبقية الناس ! مظهر قوى من مظاهر المساواة ، ودرس بليغ لتعليم الناس هذا المعنى الطيب تعليما عمليا ، وهو درس يتجدد ويتاح اطلاب المعانى السامية كل عام مرة فى الحج ومرات فى العمرة اذا شاءوا .

ولقد أراد بعض أشراف قريش أن يميزوا أنفسهم فى بدء الاسلام عن بقية الناس فى الحج ، فلم يقبل الله منهم ما أرادوا وأمرهم ان يقفوا وينزلوا من عرفات مع كل الناس دون تمييز ، وقال لهم **«فاذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام واذكروه كما هداكم وان كنتم من قبله لمن الضالين ، ثم أفيضوا من حيث افاض الناس واستغفروا الله ان الله غفور رحيم»**

نعم : أفيضوا من حيث أفاض الناس ، ولاتميزوا انفسكم عنهم بشىء يرضى غروركم فليس هنا مجال الغرور والكبرياء .. وانما هنا مجال الأخاء والمساواة .. المساواة ، فى أروع صورها وأسمى معانيها ..

انما العز فى الايمان :

وفى القرآن الكريم كذلك آيات تشير الى حوادث تدل كلها على حرص الاسلام على أن تسود المساواة بين الناس ـ كما تدل على وزنهم بميزان أعمالهم وسلوكهم ، لابميزان المال والسلطان والنسب ، وهى دروس ألقاها الله على رسوله وعلى المسلمين ، لتظل راسخة فى نفس كل مسلم ، يتلو القرآن ، ويتخذه منهاج سلوكه فى هذه الحياة .

فقد بادر جماعة من الفقراء والضعفاء والعبيد ، الى الايمان بمحمد صلى الله عليه وسلم والالتفاف حول دعوته .. وأتاح ذلك فرصة للمتكبرين فى مكة كى يتندروا أحيانا ويستهزئوا بمحمد وأتباعه الفقراء ، ولكى يتعللوا أحيانا أخرى بانهم ـ وهم الاكابر ـ لايستطيعون أن يجمعهم حول محمد مجلس واحد ، يضمهم مع هؤلاء الضعاف والعبيد ، وطلبوا من الرسول أن ينحى عنه هؤلاء الاراذل ـ كما يصفونهم ـ حتى يمكنهم أن يتجمعوا حوله ، ويناصروه والرسول يهمه بالطبع ، أن ينضم هؤلاء الأقوياء والزعماء للدين الجديد ، حتى تقوى شوكته ويكثر أنصاره .

ولكن ماذا يعمل فى الشرط الذى اشترطوه ؟ هل ينحى عنه هؤلاء السابقين للاسلام من الفقراء والعبيد ؟ وهل يتفق هذا مع مبدأ الدين الجديد الذى يدعو اليه ؟

وبدت هذه المسألة كأنها مشكلة ، ومعركة فى نفس الرسول معركة بين الأمل المشرق للاسلام فى اسلام هؤلاء الأقوياء ، وبين القيم العليا ، فى الحرص على هؤلاء الذين بادروا ، وتابعوا الرسول واحتملوا معه أصناف العذاب ، وانتصرت القيم العليا ، انتصرت المساواة ، انتصرت العقيدة والعمل ، على الحسب والنسب والمال والسلطان ، وأنزل الله على نبيه آيات خالدة تحذره من أن يسمع

لهؤلاء الزعماء ، أو يستجيب لهـم ، وتأمره أن يحتفظ بأتباعه الفقراء الضعاف ، لانهم عند الله بعقيدتهم وايمانهم ، أرجـح وزنا ، وأقرب مكانا ، من هؤلاء الزعماء المتكبرين ، المختالين بمالهم ومراكزهم .. فقال « **ولاتطرد الذين يدعـون ربهم بالغـداة والعشي يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء ، وما من حسابك عليهم من شيء ، فتطردهم فتكون من الظالمين . وكذلـك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين** ».

وكان هذا ـ كما قلت ـ درسا بليغا ، عرف فيه أتباع الدين الجديد ، وغير أتباعه أنه يسوى بين الجميع ، ولا يقيم وزناللمال والسلطان ، وانما يقيس الناس بعقيدتهم وأعمالهم .

عتاب الهى :

ويمر هذا الدرس ونتابع قراءة القرآن ، فنجد فى أواخره درسا أبلغ من هذا ، وان كان فى موضوعه ، يلقيه الله عـلى نبيه ، ويعاتبه على تصرف تصرفه حين أعرض عن التحدث مع مؤمن أعمى ضعيف ، وأقام وزنا لأصحاب المال والجاه والسلطان .. فاستمر يحدثهم طمعـا فى ايمانهم ، وأملا فى جذبهم اليـه ، فأنزل الله آيات تسجل هذا الموقف ، الذى لم يرض الله عنـه ، وتسجل نصرا خالدا ـ للأيمان والعمل الصالح ، ولو كان من أعمى فقير ضعيف ، وتعلمنا كيف نحترم الناس ، ونزنهم بالميزان الذى أقامه الله ، تعلمنا أن الناس سواسية ، لا فضل لواحد منهم عـلى الآخر الا بالتقوى أو بالعمل الصالح .

وكان هذا الدرس البليغ فى هذه الآيات :

« **عبس وتولى ، أن جاءه الأعمى ، وما يدريك لعله يزكى ، أو يذكر فتنفعه الذكرى ، أما من استغنى فأنت له تصدى ، وما عليك**

الا يزكى ، وأما من جاءك يسعى ، وهو يخشى ، فانت عنه تلهى • كلا انها تذكرة » •

وما احسن ماذكره الشيخ محمد عبده فى تفسير هذه الآيات حيث يقول « يذكر الله نبيه فى صورة عتاب بان ضعف ذلك الأعمى وفقره ، لايصح أن يكون حاملا على كراهة كلامه والأعراض عنه ، فانه حى القلب ، ذكى الفؤاد ، اذا سمع الحكمة وعاها ، فيتطهر بها من أوضار الآثام وتصفو بها نفسه من كدر الوساوس ، أو يذكر بها ويتعظ ، فتنفعه العظة فى مستقبل أمره ، فلا يقع فى مأثم ، أما أولئك الأغنياء الأقوياء ، فأكثرهم الجحدة الأغبياء ، فلا ينبغى الانصراف اليهم ، والتصدى لهم ، لمجرد الطمع فى اقبالهم على الأمر • يرجون فيه فيتبعهم غيرهم فان قوة الانسان فى حياة قلبه ، وذكاء لبه ، والأذعان للحق اذا ظهر والانقياد للدليل اذا بهر ، أما المال والنشب والعصبة والنسب والحشم والأعوان ، والتيجان • فهى عوار تغدو وترتحل ، وتقر حينا ، ثم تنتقل ، فكأنه يقول ، يأيها النبى ان أقبلت فأقبل على العقل الذكى ، والقلب التقى ، واياك أن تنصرف عنه الى ذى الجاه القوى ، والمكان العلى ، فذلك انسان قوى بنفسه ، حى بطبعه وهذا غائب عن حسه معدوم بذاته موجود بجمعه ، وفى ذلك من تأديب الله لأمة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما لو تأدبوا به لكانوا اليوم أرشد الأمم ، هداهم الله » •

زيد وزينب :

وفى القرآن الكريم آية تشير الى حادثة هامة فى عهد الرسول وقد ألقى الله بها على المسلمين درسا ، يعتبر فى نظرناونظر كل باحث اجتماعى ، عالم بالتقاليد والنفسيات ، أكبر درس عملى ، فى غرس روح المساواة فى النفوس ، ومحو روح التكبر والتعالى

والتفاخر بالانساب ، جعل قيمة الانسان فى الحياة فكرته وعمله لا ماله ونسبه .

فلقد اتجهت نفس الرسول صلى الله عليه وسلم أن يزوج زيد بن حارثة من زينب بنت جحش ، وزيد هذا كان عبدا لرسول الله أعتقه وتبناه لحبه أياه ، ثم ابطل الله التبنى وبقى زيد من احب المسلمين الى قلب الرسول ، فلما اتجهت نفسه لتزويجه ، ذهب الى بيت أولاد عمته « أميمة بنت عبد المطلب » وخطب منهم زينب ، فظنوا أنه يخطبها لنفسه ، فرحبوا ورضوا ، وكيف لا يرحبون ، وهم أقارب الرسول ، وستصير زينب بهذا زوجا له ، ومن أمهات المؤمنين !!

ولكن الرسول أفهمهم أنه يخطبها لزيد مولاه ، لا لنفسه ، وهنا ثارت فى نفوسهم عصبية النسب والأسرة ، كيف هذا وزينب قرشية بنت عمة الرسول ، ومن أعلا النساء نسبا ومكانا ، وزيد عبد من العبيد ، كان الى عهد قريب ، يباع ويشترى ، وان صار حرا حين أعتقه الرسول ؟! ولذلك امتنعت زينب ، وامتنع أخوها عبد الله من الموافقة على ما أراده الرسول ، وقالا : كيف هذا ، وزينب أعلى منه حسبا ونسبا وهو مولى من الموالى ، واعتبروا هذا نوعا من الخدش لكرامتهم ، والحط من شأنهم .

وهنا تنزل الآية الكريمة تطفىء هذه الفورة النفسية ، وتكسر حدة التفاخر بالنسب ، وتعيب على هؤلاء احتجاجهم بعلو نسبهم عن زيد ، ورفضهم الاستجابة لرأى الرسول ، وتضع أساسا ساميا لتفاضل الناس ، وهو أساس الدين والخلق والعمل الصالح ، وجعلت رأى الرسول فى هذا وفى غيره ، هو الرأى الذى يجب أن ينزل عنده كل مؤمن ومؤمنة ، فقال « **وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ، ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا** » .

وحين سمعت زينب وأخوها بهذه الآية ، رضخا لأمر الرسول ورضيا به ، وتم تزويج زيد من زينب ، برغم الفوارق والاعتبارات التى ينزلها الناس من نفوسهم منزلة التقديس ، تزوجت القرشية قريبة الرسول من عتيقه ومولاه زيد ، وكانت أول حادثة من نوعها فى المجتمع العربى القرشى ، وكانت أثرا من آثار المبادىء الاسلامية الجديدة ، التى لاتعترف بالفوارق القائمة على الغنى أو النسب ، وانما تجعل الأساس هو الدين والخلق ، حتى ليقول الرسول — صلى الله عليه وسلم — فى هذا المعنى قولا فصلا صريحا **((اذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه ، الا تفعلوه تكن فتنة فى الارض وفساد كبير))**

وهكذا ينجلى هذا الزواج عن مبدأ جديد فى الاسلام تطيب له النفوس الكبيرة وان رعدت منه أنوف متكبرة معتزة بمالها ونسبها متمتعة عن السير فى أضواء الفجر الجديد الذى يغمر الناس جميعا بضيائه ، ويعمهم بخيره وهداه ..

زيجات أخرى :

وسرت هذه الروح الجديدة فى المجتمع الاسلامى ، ولمست بهديها وسموها كل نفس اسلامية وتولى الرسول — صلى الله عليه وسلم — غرس هذه الروح بين المسلمين . فقد جاءت فاطمة بنت قيس — رضى الله عنها — وهى قرشية ، ذات جمال وفضل ، ومن المسلمات المهاجرات ، واستشارته فيمن تتزوجه ، وكان قد خطبها رجلان من قريش : معاوية بن أبى‌سفيان ، وأباجهم ، فأشار عليها الرسول بتركهما ، وبالتزوج بأسامة بن زيد ، وقال لها : « انكحى أسامة بن زيد » وهو مولاه وابن مولاه زيد بن حارثة .

ثم أشار على جماعة من أصحابه ، أن يزوجوا امرأة منهم ، لرجل أقل منهم فى النسب وفى الوسط الاجتماعى ، وقال :

« يابنى بياضة : انكحوا أبا هند » وكان مولى من مواليهم ، يشتغل حجاما .

وسرت هذه الروح كما قلت بين المسلمين ، فزوج عبد الرحمن ابن عوف ـ وهو قرشى ، من خيرة أصحاب الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أخته « هالة بنت عوف » بلالا ، العبد الحبشى ، صاحب رسول الله ومؤذنه ، وعرض عمر بن الخطاب ، صاحب الرسول ، وثانى خلفائه ، بنته حفصة على سلمان الفارسى ، قبل أن يخطبها الرسول ويتزوجها .

حق الولاية :

واذا كنا نرى هذا فى ناحية الزواج ، فان هناك ناحية أخرى هامة ، تبرز لنا المساواة ، بصورة أوضح ، وأقوى ، وهى ناحية الولاية والقيادة العامة فى الجيش ، لأنها ناحية جد حساسة .

فالوالى أو القائد أكبر شخصية فى مجتمعه ، يأتمر بأمره كل من حوله فى الولاية أو الجيش ، أيا كان مركزهم وحسبهم ونسبهم .

فهل وضع الاسلام فى اعتباره عند اختيار الوالى أو القائد ،أن يكون من أسرة معروفة، لها نسب وحسب ومكانة مالية فى المجتمع، أو أنه لم ينظر الى هذه الناحية ، واتجه الى مجرد الكفاءة والجدارة، يختار صاحبها أيا كان ، ولو لم يكن من الأسر الكبيرة والأصول العريقة ؟ .

هذا ما أريد الكشف عنه ، لنرى نظرة الاسلام فى هذه الأمور الى الناس ، وهل سوى بينهم ، ثم تركهم يتفاضلون بالعمل ، أو أن نظرته كانت نظرة أرستقراطية ، يختار الوالى من الأسر الكبيرة ولو لم يكن أهلا لعمله ومنصبه ؟.

الحق أننا نجد الاسلام فى هذه الناحية الهامة الحساسة ، يسير سيرا منطقيا مع مبادئه التى ينطق بها القرآن الكريم : **« ان أكرمكم عند الله أتقاكم » و « انا لا نضيع أجر من أحسن عملا »** •

ونجد الرسول وصحابته من بعده ، يحرصون على تطبيق هذا المبدأ ، تطبيقا ترتاح اليه النفوس الكريمة ، ويثير فيها الهمم العالية ، والعزم والتسابق الى معالى الامور •

فباب الولاية العامة والقيادة مفتوح للأكفاء أيا كانوا ، ودون تفريق لنسب أو جنس أو لون ، اذ ليس هناك شئ أشد قتلا للهمم وتبديدا للكفايات ، واضاعة لمصالح الأمة ، من اعتبار النسب أو الجنس أو اللون مبدأ من مبادئ تفضيل انسان على الآخر ، وهذا الذى نلمسه ونحسه من واقع تجاربنا هو ما قاله الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ محذرا الناس من اتباعه والميل اليه حين قال : « اذا وسد الأمر لغير أهله فانتظر الساعة » وساعة الامة وساعة هذا الأمر هى فشله والقضاء عليه •

ومن واقع هذه التجارب ومن تشرب تعاليم الاسلام ، كانت الحكمة التى نعرفها جميعا « قيمة كل الناس ما يحسنونه » ومنهما نبت المثل الشعبى المعروف « اعط العيش لخبازه » •

فالاسلام حين اعتبر الكفاية فى العمل هى المرشحة له دون أى اعتبار ، من جنس أو لون أو مركز مالى ، انما يتلاقى مع طبيعة الامور ومع العقل الرشيد ، وهو بهذا دين الفطرة السليمة حقا ••

فى غزوة « مؤتة » حين كان الروم وأتباعهم ، يدلون بكثرتهم ، ويهددون أمن الدولة الاسلامية الوليدة ، جعل الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ على رأس الجيش الاسلامى « زيد بن حارثة » ، وزيد هذا ليس من سادات قريش ، ولا من القبائل المعروفة بشرفها

ومركزها ، ولكنه مولى رسول الله كما نعلم من قبل ، ومع ذلك أمره الرسول على الجيش الذاهب للشمال ، وفيه من كبار الصحابة المهاجرين والأنصار سادات العرب المسلمين ، وقدمه فى القيادة على ابن عمه « جعفر بن أبى طالب » ، وهو كما نعلم شجاعة وقربى من رسول الله ، وكانت تعليماته ، ان أصيب زيد فالأمير من بعده جعفر ، فان أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة قائد على الناس ٠

وقاتل زيد بجيشه الذى يبلغ ثلاثة آلاف ، جيشا من الروم يبلغ مائتى ألف ، واستبسل فى الميدان حتى استشهد ، وكان مثلا عاليا فى التضحية والفداء ، حتى تقول السيدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ وهى تتحدث عنه «ما بعث الرسول سرية فيها زيد ، الا أمره عليها ، ولو كان حيا لاستخلفه » ٠

وهذا قول يستدعى منا أن نقف عنده «لو عاش بعده لاستخلفه» فانه حتى وان كان استنتاجا واجتهادا من السيدة عائشة الا أنه بلا شك يمثل أتم تمثيل ، تلك الروح الاسلامية الطيبة التى أوجدها الاسلام فى صفوف أتباعه ، وهو قول لا مبالغة فيه ، اذ آن شواهده كثيرة من أفعال الرسول وتأميره له على كل سرية ، وفى غزوة مؤتة ، وتقديمه على ابن عمه جعفر ٠

ولا تقف حصيلتنا من الأمثلة عند زيد ، اذ أن هناك مثلا آخر لعله فى دلالته أبرز وأقوى من الأول ، وهو جعل أسامة بن زيد قائدا عاما على الجيش الذى جهزه الرسول قبيل وفاته ، ردا على تراجع الجيش الاسلامى فى « مؤتة » بعد أن استشهد قواده الثلاثة ، وذلك ليحفظ للمسلمين هيبتهم حتى لا يطمع فيهم الروم ويهددوا حدودهم وأمنهم ، وكان أسامة شابا وتحت امرته كثير من أجلاء الصحابة والسابقين فى الاسلام ، ولم ينقص من شأن أسامة عند الرسول أنه كان شابا ، وابن مولى عتيق وأسود اللون٠

وعندما بلغ الرسول ، أن بعض أصحابه يعترضون عليه ، لأنه شاب لم يتجاوز السابعة عشرة ، وفى الجيش من هم أسن منه ، من كبار المسلمين ، وجدها ـ صلى الله عليه وسلم ـ فرصة لتدعيم القواعد الاسلامية فى المساواة ، وتعليم الناس أصولها ، وتقديرهم للكفايات ، بغض النظر عن السن واللون والنسب ٠

فقد غضب لهذا الاعتراض غضبا شديدا ، وقام فخطب الناس وقال :

« أما بعد أيها الناس ، فما مقالة بلغتنى عن بعضكم فى تأميرى أسامة ؟ لئن طعنتم فى تأميره ، لقد طعنتم فى تأميرى أباه من قبله ، وأيم الله ، انه كان لخليقا بالامارة ، وان ابنه من بعده لخليق بها ، وانهما لمظنة لكل خير ، فاستوصوا به خيرا فانه من خياركم »

وأكدت هذه التصريحات النبوية القاطعة ، مكانة أسامة فى المجتمع الاسلامى ، ومكانة أبيه من قبله ، برغم أنهما من العبيد المعتقين ٠

ولم يقدر لجيش أسامة أن يمضى الى مهمته فى حياة الرسول ، ولكنه خرج بعد وفاته ، وتنصيب أبى بكر خليفة على المسلمين ، وقد سار الخليفة فى ركابه ، يودعه الى خارج المدينة ، ورأى المسلمون منظرا غريبا ، استحى منه أسامة نفسه حين رأى نفسه راكبا وأبا بكر يمشى بجانبه ، فهم بالنزول ، ولكن أبا بكر أبى عليه ذلك ، وأصر على أن يمشى فى ركابه ، ركاب القائد المولى الشاب تكريما له وللغرض النبيل الذى يمضى فى سبيله ٠

ولما أراد الرجوع استأذنه فى أن يبقى عمر فى المدينة بجانبه يعاونه فى أعباء الخلافة ، وكان عمر جنديا فى جيش أسامة ، فأذن له بالبقاء ، وسار الجيش الى غايته ، وبقى هذا كله فى

صفحات التاريخ ، أروع مثل وأبرزه عن المســـــاواة التى أسس الاسلام بنيانها ، وأرسى دعائمها ٠

وتتغلغل هذه الروح المثالية بين المسلمين ، وتصبح القــاعدة عندهم أن العمل يتولاه الكفء مهما يكن ، فقد روى عن سعد بن زيد بن عمرو أنه قال لعمر فى آخر حياته ، انك لو أشرت برجل من المسلمين ، ائتمنك الناس ــ أى رضوا برأيك ــ فقال عمر : انى قد رأيت من أصحابى حرصا شديدا ، ثم قال : لو أدركنى أحد رجلين ، فجعلت هذا الأمر اليه ، لوثقت به : سالم مولى أبى حذيفة، وعبيدة بن الجراح ، وشاهدنا فى هذه الرواية : سالم ، فقد كان عبدا رقيقا ثم اعتقته زوجة أبى حذيفة ، وتبناه بعد عتقه ، وزوجه ابنة أخيه « فاطمة بنت الوليد بن عتبة » واستطاع ســالم بعمله وكفاءته أن يحتل مكانة كريمة وسط المهاجرين والأنصار ، حتى كان يؤمهم أحيانا فى مسجد قباء ، وفيهم أبو بكر وعمر ، وسمعه الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ مرة يقرأ القرآن ، فقال : الحمد لله الذى جعل فى أمتى مثله ٠

فاتجاه عمر ــ رضى الله عنه ــ الى توليته منصب الخلافة ، لو كان حيا ، بل وتمنيه ذلك ، يعطينا فكرة واضحة وقوية على مقدار ما فعله الاسلام ، فى القضاء على الفوارق الجنسية والنسبية ٠

والمسألة ليست مسألة هينة ، اذ هى ليست مجرد معــــاملة حسنة لهؤلاء العبيد المعتقين ، بل هى وضعهم فى أعلى منصب فى الدولة الاسلامية ، وهو منصب الخـــلافة ، يحكمون امبراطورية اســـلامية واسعة الأطراف ، فيها كبار الصحابة ، وكبار البيوت الهاشمية والقرشية وغيرها ، ممن يعتز بنسبه ومكانته فى الجزيرة العربية ، ومع ذلك يحس عمر الحاذق البصير باطمئنان تام ، أن لو كان هذا المولى حيا لنصبه الخلافة ، حرصا على مصلحة المسلمين

أترانا فى حاجة الى دليل نقدمه للتاريخ ـ بعد هذا الدليـــل ـ عن مقدارنظرة الاسلام الى الناس نظرة المساواة والتقدير للكفايات، دون اعتبار الجنس واللون والأصل ، ومع ذلك فان تاريخ الاســلام حافل بأمثال كثيرة لهذا الدليل .

ونبدأ بحادثة كثيرا ما تحصل فى مجتمعنا الآن وتمر ، دون أن نعلق عليها اهتماما ـ أى اهتمام ـ أما الرســـول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو المربى الأعظم فلم يتركها تمر ، دون أن يعطى أتباعه والعالم أجمع الدرس البالغ منها .

بين بلال وأبى ذر :

فقد جاء اليه صاحبه ومؤذنه « بلال » الحبشى ، يشــكو أبا ذر الغفارى ـ رضى الله عنهمـــا ـ حين عيره بأمه ، وقال له يا ابن السوداء ، ولعل هذه الكلمة تتداول كثيرا على ألسنة الناس اليوم ، كما كانت تتداول فى البيئة العربية قبل أن يهذبها الاسلام، ولكن الرسول أحس من خلال هذه الكلمة التى وجهها صحابى فاضل اثناء ثورته ، لصحابى فاضل آخر ـ أحس ما وراءها من نفسية متعالية ، تنزع الى اعتبار اللون أساس التفاضل ، أو التعاير بين الناس ، وهو ما لا يحبه بحال ، ولذا غضب الرســـول حتى ظهر الغضب فى وجهه ، وقال لأبى ذر « انك امرؤ فيك جاهلية ، ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل الا بالتقوى ، أو بعمل صالح »

وهذا كلام له مغزاه ، وله فعله الأليم كذلك فى نفس أبى ذر، فالرسول يصف قوله هذا بأنه من بقايا التفكير الجاهـــلى ، الذى كان يسود العرب ومجتمعاتهم ، قبل أن يهذبهم الاسلام ، وما كان يليق بأبى ذر وهو من هو ، مكانة فى الاسلام ـ أن يجعل لهـــذا

التفكير الجاهلي سبيلا الى نفسه ، أو طريقا الى لسانه ، بعـــد أن حاربه الاسلام ، وما كان له أن ينتقص انســـانا لأن لونه أو لون أمه أسود !

فتلك معايير قضى عليها الاسلام ، وأنشأ بدلها معايير أخرى فاضلة ، لا تنظر الى اللون ولا الى النسب ولا الى المـــال ، ولكنها تنظر الى جوهر الانسان ، تنظر الى نفسه التي يحملها بين جنبيه ، والى ما يصدر عن هذه النفس من أعمال ٠

وقد نفذت كلمات الرسول الى نفس أبى ذر وأحس أنه أخطأ ، وحاد عن آداب الاسلام حين ثار على بلال ، وعيره بســـواد أمه ، فتألم أيما تألم ، وندم ما شاء له الندم ٠ وذهب الى بلال يستعطفه ويسترضيه ، ويكفر عن خطئه ، ولم يعتذر كالعادة بكلمة ، بل وضع خده على الأرض ، وقال لبلال :

« قم فطأ على خدى » الله أكبر ٠٠ ما أعظم النفوس التى تعرف خطأها ، وتعرف الطريق التى تكفر بها عن هذا الخطأ فى شجاعة ونبـــل ٠٠

وما أعظم نفس أبى ذر ، حين أخطأت ، وحين عرفت طريـــق الاعتذار والتوبة واختارت أوعزها وأقساها ، وما أعمقها من توبة خالصة ، وما أروع موقف بلال الثائر الشاكى ، حين رأى هذا من ابى ذر فصفح عنه الصفح الجميل ٠

فلنبحث فى أنفسنا عن هذه الكلمـــة التى قالهـــا أبو ذر ، وتركت هذا الأثر فى نفس الرسول ، ولنفتش عنها وعن أمثالهـــا فيما حولنا ، ألسنا متلبسين بها ، داخل أنفسنا ، وفى مهاتراتنا ، ألا نسمع نحن أو نقول الكثير منها ، ومن أمثالها ٠٠ ثم نمر عليها مر الكرام وكأننا لم نقل ولم نسمع أمرا منكرا ، لا يسيغه الاسلام بحال من الأحوال !!

لكأننا أصبحنا جميعا أناسا فينا جاهلية !

واذا بحثنا فى أعمال الرسول ، عن شواهد أخرى لموضوعنا ، فاننا نظفر بالكثير منها ، فهو حين قدم المدينة نجده يشترك فى بناء المسجد مع أصحابه ، ويحمل اللبن معهم كواحد منهم لبناء المسجد حتى نجدهم ينشدون ــ وقد بلغ بهم الحماس غايته :

لئن قعدنا والنبى يعمل لذاك منا العمل المضلل

واشترك معهم فى حفر الخندق ، حين استقر الرأى على حفره ، ليقى المدينة شر المهاجمين ، بل كانوا كلما قابلتهم صخرة تستعصى عليهم ، دعوا الرسول ليقتلعها من مكانها ، ويرمى بها بعيداً .

* * *

ونجد فى غزوة أحد ، صورة كريمة من المساواة الفكرية ، والديمقراطية الحقيقية ، فقد كان من رأيه ــ صلى الله عليه وسلم ــ ألا يخرج للحرب ، بل يكتفى بتحصين المدينة ، ولكنه لما رأى أن أكثرية الصحابة تميل للخروج ، لم يستأثر بالرأى ، بل نزل على رأيهم ، مع أنه لو تمسك برأيه ، لنزل الجميع عنده راضين .. وقد حدث أنهم أحسوا أن الرسول رجع عن رأيه نزولا على رأيهم فأرادوا أن يرجعوا لرأيه الأول ولكنه ــ عليه الصلاة والسلام ــ أبى ذلك .

على جمع الحطب :

وصورة أخرى كريمة من المساواة العملية ، فقد كان ــ عليه الصلاة والسلام ــ مع جماعة من أصحابه ، أرادوا ذبح شاة وطبخها ، ليأكلوا ، فاقتسموا العمل فيما بينهم ، وقال أحدهم ،

على ذبحها ، وقال الثاني ، وعلى سلخها ، وقال الثـالث : وعلى طبخها ، فقال الرسول : وعلى جمع الحطب ·

ولعل جمع الحطب عملية صغيرة بالنسبة للأعمـال الاخرى ، لا يرضى بها كثير من الناس ، ولكن الرسول اختارها ، حين أخذ كل من العمل ما يروقه ، ورأى أن يسـاهم معهم ، ويعمل كواحد منهم ·· ولما أرادوا توفير جهده وقالوا له : بل نكفيك العمـل يا رسول الله ، فلا تعمل ، أبى وعلل اباءه بمبدأ هام ، نتعلم منه نحن روح المساواة ، وحسن السياسة ، وقال لهم : « اننى أكره أن أتميز عليكم » ·

نعم كره الرسول أن يشعرهم فى ميدان الكفاح والعمل بميزة له تريحه ، وتعفيه من العمل ، بينما يكد الباقون ، ويجهزون له الطعام ، وان كان ـ عليه الصلاة والسلام ـ أفضلهم وأكرمهم عنـد الله وعند أنفسهم ، والناس أجمعين ، لكنه المعلم والمربى ، الذى ينشىء أمة ، ويضع لها الأسس المثالية الفاضلة ، التى تسير عليها ، ليكسر من حدة النفوس المتكبرة ، ويطبعها على التواضـع ، وحب المساواة بينها وبين الناس ، ولعل حرص الرسول على غرس هذه الروح فى نفوس أتباعه ، هو الذى جعله يستكثر أن يخاف منـه رجل من الناس ، حين دخل عليه مرتعدا ، كما تصيب الرعدة بعض الناس ، حين يدخلون على الملوك والحكام ، فلم يرض الرسول عن هذه الظاهرة ، التى لا تتفق وروح رسالته التى يعلمها النـاس ، والتى جعلتهم جميعا سواء ، ورفعت من قيمتهم ، فقال للرجـل : « هون عليك يا رجل ، فاننى لست بملك ، وانما أنا ابن امرأة ، كانت تأكل القديد بمكة » ·· صلى الله عليك وسلم يا رسـول المساواة ، كان يكفى لكى تطمئن الرجل ، أن تقول له لا تخف ·· ولكنك أردت أن تزيد فى اطمئنانه ، وتعلمه وتعلم الدنيا بأسرها ، أن الناس سواسية ، وأن السلطان هالة مصطنعة ، فقلت له ما قلت

فاطمأن وعرف أنه أمام رسول الحب والطمأنينة والمساواة ، وبقى قولك هذا مثلا ساميا ، لطلاب المثل العليا فى الحياة ، صلى الله عليك يا رسول الله •

لقطع محمد يدها :

ولعل من أروع صور المساواة وأبرزها كذلك فى الاسلام ، ما جاءت به شريعته الخالدة ، من جعل الناس جميعا سواسية أمام قانونها ، ومعاقبة كل من يخرج عليها أيا كان مركزه ، وأيا كان سلطانه ، فهذه التعاليم يخضع لها الجميع دون تفرقة ، فاذا شذ فرد وانحرف ، ولو كان خليفة المسلمين وحاكمهم •• تناولته بالمحاكمة والمؤاخذة ، كأى فرد ضعيف ، دون أن تعطيه حصانة تحميه من العقاب ، كتلك التى نسمع عنها فى الدساتير الواردة لنا من البلاد الغربية •

وهذه مثالية لا شك فيها ، قررتها الشريعة الاسلامية ، منذ ثلاثة عشر قرنا ، وطبقتها فى مجتمعاتها ، بينما لا تزال للآن حلما من أحلام الانسانية ، ينشده المثاليون فى العالم الغربى ، ومن تبعهم من الشرق ، ويتوقون الى تحقيقها فى عالم يرسف فى أغلال التمايز بين الطبقات ، ولقد جاء الرسول — صلى الله عليه وسلم — والعالم يئن من هذا التمايز بين طبقاته ، والناس فى أى مجتمع ، وفى أى زمان ، ينزع الغنى منهم والقوى الى التعالى على القانون ، واخضاعه لهواهم، فى الوقت الذى يضيفون فيه الى سيطرة القانون على غيرهم ، سيطرتهم هم ، واملاء ارادتهم على ذلك الغير •

وهكذا كان الناس حين جاءهم الرسول فى جزيرة العرب وخارجها شرقا وغربا ، ورسالة السماء انما تنزل دائما لمعالجة أدواء الناس ، حين تشتد بهم العلة ، ويستبد بهم الداء ، ويتلهفون على

الدواء ٠٠ ولذا كان من أهم ما عنى به الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن يعالج هذا المرض الاجتماعى ، ويعلم الناس انهم سواء أمام قانون السماء ، وهو أولهم خضوعا لهذا القانون ٠٠ وكان على الرسول أن يجابه حوادث كثيرة من هذا النوع ٠

أحس الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن المجتمع حوله - فى وقت من الأوقات - يتحرك فى اتجاهه القديم ، لمحاباة أصحاب الجاه والسلطان ، ويستكثر أن يحاكم امرأة سارقة ، لأنها من أسرة عريقة ، ويحاول أن يقصيها عن قبضة القانون ، فغضب صلى الله عليه وسلم من هذه المحاولات ، وأبى الا تطبيق القانون عليها ٠

وانتهز هده الفرصة السانحة لينزع من نفوس الناس هذه الأفكار والاتجاهات السيئة ، التى لا يستقيم بها مجتمع ، وأفهمهم أن المجتمع الذى يرعاه الاسلام ، لابد أن يشعر أفراده جميعا ، بأنهم أمام القانون سواء ، حتى يحرصوا على بنائه القوى ويدافعوا عنه بروح فتى ٠٠

جاء فى كتب الصحاح عن عائشة - رضى الله عنها - قالت : « ان قريشا أهمهم شأن المرأة المخزومية التى سرقت ، فقالوا : من يكلم فيها رسول الله ؟ ثم قالوا : « من يجترىء على ذلك غير حبه وابن حبه أسامة ٠٠»وأخذت الوساطةمجراها العادى ،حتىبلغته رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن طريق أسامة ، وكأنه لم يفعل شيئا غير عادى ، ولكن الرسول - صلى الله عليه وسلم - غضب وقال لأسامة : « أتشفع فى حد من حدود الله ! » ثم قام فخطب فى الناس وقال : « انما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا اذا سرق فيهم الشريف تركوه ، واذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها »

بهذه الوقفة الشديدة الحازمة ، جابه الرســول هذه النفسية القديمة ، التى تستكثر أن يعاقب الوجيه الكبير مهما يقترف من الأخطاء ، وعلمهم أن الجميع سواء ، وذهب فى اقناعهم وافهامهم ، وفى شدته وحزمه أمام أفكارهم هذه ، الى أن أقسم لهم أنه يستنفذ قانون السماء على كل انسان ، مهما بلغت درجته ومنزلته ، ولو كان ذلك الانسان فاطمة ابنته ، التى يحبها ، وينزلها منزلة نفسه ، وهى قطعة منه .

فهل بعد هذا الدرس ، تسول لانســان نفسه ، أن يطلب استثناء ، أو يحاول أن يضع نفسه فوق القانون ؟!

الفاروق وجبلة :

وفى أيام عمر رضى الله عنه ، كان أحد الأمراء العرب يطوف بالكعبة وهو « جبلة بن الأيهم » ، وأثناء طوافه داس أعرابى على طرف ردائه ، فغضب ولطم الأعرابى ، فشكاه الى عمر بن الخطاب وكان جبلة لم يتأقلم تماما ، ولم تتشرب نفسه روح الاسلام ، وقد تعود فى حياته أن يلطم ويضرب من هم أقل منه ، ولا يجــدون نصفة ، ولا قصاصا ، وظن أن مقامه سيخول له ذلك أيضا فى العهد الجديد ـ عهد الاسلام ـ ولكن عمر رضى الله عنه ، أعطى الأعرابى حق الاقتصاص منه ، وقال له ، الطمه كما لطمك ، فعز ذلك على جبلة ، ولم تهضم نفسه هذا الحكم ، ولم تتحمل مظاهر العدل الذى جاء به الاسلام ، ففر من مكة ، ولجأ الى بلاد الروم ، واعتنق النصرانية ، ولكنه ندم بعد ذلك أشد الندم ، وتنــاقل الرواة عنه هذا الندم حين قال :

تنصرت الأشراف من أجــل لطمــة

وما كان فيها لو صـــبرت لها ضرر

هذه بعض صور ، من واقع المساواة التى قررها الاسلام بين المحكومين ، لم ينظر فيها الى شرف الانسان ونسبه ومركزه ولكنه أهدر كل ذلك فى سبيل أقرار الحق ، ورفع سلطانه فوق الجميع ٠

مع أهل الذمة :

قد يعتبر بعض الناس هذه المساواة عادية ، لأنها مساواة بين المسلمين أنفسهم ، ولكنى أقول له ان الاسلام لم يقف عند هذا الحد فى تقرير المساواة ، بل قررها كذلك بين المسلم وغير المسلم ما دام الجميع يستظلون بلواء الاسلام ، ويعيشون فى كنفه ورعايته، ويلتزمون أحكامه العامة ٠

يقول صاحب كتاب التشريع الجنائى فى الاسلام :

« وتسوى الشريعة بين المسلمين والذميين ، فى تطبيق نصوص الشريعة ، فى كل ما كانوا فيه متساوين ــ أما ما يختلفون فيه فلا تسوى بينهم فيه ، لأن المساواة فى هذه الحالة تؤدى الى ظلم الذميين ، ولا يختلف الذميون عن المسلمين ، الا فيما يتعلق بالعقيدة، ولذلك كان كل ما يتصل بالعقيدة لا مساواة فيه ، لأنه اذا كانت المساواة بين المتساوين عدلا خالصا ، فان المساواة بين المتخالفين ظلم واضح ، ولا يمكن أن يعتبر هذا استثناء من قاعدة المساواة، بل هو تأكيد لها ، اذ المساواة لم يقصد بها الا تحقيق العدالة ، ولا يمكن أن تتحقق العدالة اذا سوى بين المسلمين والذميين فيما يتصل بالعقيدة الدينية ، لأن معنى ذلك حمل المسلمين على ما يتفق وعقيدتهم وحمل الذميين على ما يختلف مع عقيدتهم ٠٠ واكراههم على غير ما يدينون ٠٠ »

ومعنى هذا واضح ، اذ لا يقبل الاسلام أن يحاكم غير المسلم ، لأنه أكل لحم الخنزير ، بينما يعاقب المسلم على ذلك ، لأنه لو عاقب غير المسلم ، كما يعاقب المسلم ، وسوى بينهما ، لكان فى ذلك الزام لغير المسلم ، بما لم يلزمه به دينه ، وهذا اكراه فى الدين ، لا يحبه الاسلام الذى قال كتابه الكريم : « **لا إكراه فى الدين** » .

وهذه غاية العدل والسماحة فى الاسلام .. وهى فى نهايتها أخذ بروح المساواة ، فى احترام عقيدة كل انسان .. سواء اتفق مع عقيدة الدولة الحاكمة المنفذة للقانون ، أم اختلف معها ..

وحين بحث الفقهاء فى الفروع التطبيقية لهذا المبدأ ــ المساواة ــ وجدنا أبا حنيفة رضى الله عنه ، يقرر أنه اذا قتل مسلم غير مسلم من الذين أعطيناهم الأمان ، وعاشوا معنا فى الاسلام ، فان المسلم يقتل قصاصا ، اذا كان قد اقترف جريمة القتل عمدا . وذلك عملا بمبدأ المساواة ..

بل اننا نجد صريح القرآن يقرر المساواة بين المسلم وغير المسلم ، اذا قتل كل منهما خطأ ، حيث أوجب على القاتل أن يدفع دية لأهل القتيل ، ويحرر رقبة مؤمنة من الرق ، وهو منطوق قوله تعالى « **ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة الى أهله الا أن يصدقوا** » .

ثم قال : « **وان كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق ، فدية مسلمة الى أهله وتحرير رقبة مؤمنة** »

ومن هذا نجد أن الواجب فى قتل المسلم والذمى سواء لم يفرق الاسلام بينهما : دية تدفع الى أهله ، وتحرير رقبة مؤمنة من الرق .

وقد وقف القرآن موقفا خالدا من جماعة منتسبين للاسلام ، تآمروا على اخفاء معالم الحق والعدل ، ليفلت صاحبهم من العقاب ،

ويوقعوا فيه شخصا آخر من اليهود ، فوقف منهم القرآن هذا الموقف الخالد ، ليقر الحق فى نصابه ، بغض النظر عن شخصـــية هذا أو ذاك ٠

فقد روى لنا أن رجلا من المنتسبين للاسلام ، ولم يتخلق هو ولا أسرته بخلقه ، سرق درعا من مســـلم آخر ، ولما رأى أن أمره سيفتضح ، وأنه سيقع عليه العقاب ، عمل على التخلص من جنايته، والصاقها بيهودى يعيش معه فى المدينة ، وانضـم اليه أفراد من أسرته ، وشهدوا عند الرسول عليه الصـــلاة والسلام ببراءة صاحبهم ، وادانة اليهودى ٠ والرسول بشر يقول ـ « انما أمرت أن أحكم بالظاهر » وقد ظهر له من شهادة الشهود ، أن المسلم برىء، واليهودى هو السارق ، ومال بذلك الى الحكم عليه ٠

وهنا تتجلى غيرة الله على الحق ، وكراهته أن يظلم أحد فى ظل الحكم الاسلامى ، ولو كان غير مسلم ، فأنزل على رســـوله قرآنا ، يتلى الى يوم القيامة ، من أجل انصاف يهـــودى ، ليبين للرسول معالم الحق ، وينهاه أن ينحاز الى الخائن الجانى ، مهما كانت شخصيته ، ويفضح هؤلاء المتآمرين الذين تزيوا بزى الاسلام ويصمهم بأوصاف ينزه المسلم الصادق نفسه عنها ٠

يقول الله تعالى مخاطبا رســـوله : « **انا أنزلنا اليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ، ولا تكن للخائنين خصيما ، واستغفر الله ان الله كان غفورا رحيما ، ولا تجـــادل عن الذين يختانون أنفسهم ان الله لا يحب من كان خوانا أثيما ٠ يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم اذ يبيتون ما لا يرضى من القول وكان الله بما يعملون محيطا ٠ ها أنتم هؤلاء جادلتم عنهم فى الحياة الدنيا فمن يجادل الله عنهم يوم القيـــامة أم من يكون عليهم وكيلا** » ٠

وبهذا استقر الحق ، وظهرت معالمه ، وحكم الرسول على الجانى الأصيل ، وبرأ اليهودى الذى اتهم زورا •

وانتهت هذه الحادثة ، ولكن بقيت الآيات شاهدة على عدالة الاسلام ، وتسويته فى الحق بين الناس الذين حكمهم مهما كانت دياناتهم •

***

بين الحاكم والمحكوم :

ولم يقف الاسلام عند هذا الحد فى المساواة ، بل سوى كذلك بين الحاكمين والمحكومين أمام القانون ، وهى مساواة لا تزال حلما من أحلام المدنية الغربية ودساتيرها ، ومثلا ساميا تتطلع اليه أعناق الحالمين بالمثل فى المجتمعات الغربية •

ان دساتيرهم لا تزال تنص على صـيانة بعض الحاكمين من سلطان القانون ، وتجعله فوقه ، وبعض الدول الشرقية الاسلامية أيضا اقتبست منهم هذا الجانب من دساتيرهم ، وجعلت ذات الحاكم مصونة لا تمس ، بحيث لا يسأل عما يفعل مهما فعل ، كما كان فى الدستور المصرى القديم الذى ألغته الثورة ، وهذه تفرقة بين الناس لا مسوغ لها ، الا أن هذا حاكم وذاك محكوم !

وقد كان من آثارها أن شجعت الحـكام على العبث بمصالح البلاد ، والاندفاع فى ارتكاب المخالفات ، والاعتداء على الناس ، وهم فى مأمن من أن يمتد اليهم سلطان القانون •

لكن الاسلام لا يعرف هذا اللون من التفرقة بين الناس ، بل يجعلهم جميعا أمام قانونه سواء يحاسب كل انسان عما فعله مهما

كان مركزه ، ولاينجيه من الحساب انه حاكم ، والذى اعتدى عليه من المحكومين •

وكان أول من طبق هذا القانون ونفذه هو رسول اللهصلىالله عليه وسلم ، الذى اصطفاه الله ، وجعله أكبر من حاكم ، وأجل وأعظم من سلطان ، كان مؤيدا من ربه ، ومحوطا بالاجلال والاكبار والتفانى من أتباعه وصحبه •

ومع ذلك كان يحرص دائما على أن يكون أول الناس خضوعا لتعاليمه وقانونه ، وعلى أن يشعر كل من حوله أنه لا ميزة له عليهم امام هذه التعاليم ، اللهم الا اذا كانت هذه الميزة شـــدة منه على نفسه ، فى أخذها بشريعته ، أو السمو بها الى المثل الأعلى •

ولو كان من شريعة العدل ، ومقتضيات المصلحة للناس ، وضع الحاكم فوق سلطان القانون ، لأعطى الله رسوله وحبيبه هذا الحق ، وأنزله هذا الوضع ، وهو عليه الصلاة والسلام حاكم عادل رحيم ، لا يخشى منه ، حتى لو وضع هذا الحق فى يده ، ولكن الله سبحانه جعل رسوله وحبيبه أمام شريعته وتعاليمه ، مساويا لكل الأفراد الآخرين •

وكان من العجب بعد هذا أن يسوغ الشيطان لحاكم مسلم ، أن يجعل نفسه فوق سلطان القانون ، ويعفيها من المسئولية بما يقترف من مخالفات ، وكأنه بذلك ينزل نفسه منزلة لم يعطها الرسول من ربه ، وهو أكرم الخلق عليه وأحبهم وأقربهم اليه !

اسمى من العدل :

يروى أنس بن مالك رضى الله عنه فيقول : « كنت أمشى مع النبى صلى الله عليه وسلم وعليه برد نجرانى غليظ الحاشية ، فأدركه اعرابى ، فجذبه جذبة شديدة ، حتى نظرت الى صفحة

عاتق النبى صلى الله عليه وسلم ، وقد أثرت به حاشية الرداء من شدة جذبته ، ثم قال الأعرابى مرلى من مال الله الذى عنـــدك ، فالتفت اليه يضحك ، ثم أمر له بعطاء •

نعم التفت اليه يضحك ، ولم يغضب لهذا الأسلوب الجاف فى المعاملة ، وكان من حقه أن يغضب ، لان هذا الأعرابى قد تجاوز حده فى الطلب ، ولجأ الى العنف ، ومن الجائز عدلا أن يعاقب على عمله ، لكن الرسول المربى قد تجاوزمجال العدل ، وسما الى أفق العفو ، فلم يغضب ،وضحك ، واتسعت نفسهالكبيرة لهذه الخشونه النابية ، وسما الى أكثر من هذا فأمر له بعطاء •

لم تكن سذاجة هذا الرجل الاعرابى وحدها هى التى دفعته الى هذه الخشونة ، بل كان هناك شىء آخر استقر فى نفسه ، وهو اعتقاده أن محمدا الرسول الحاكم ، يمكن أن يتحمل منه مثل هذا التصرف ، فلا يرد عليه بعقاب قد يفصل رقبته عن جسده ، كمـا يفعل الحكام مع مثله ، تثبيتا لسلطانهم واقرازا لهيبتهم •

وهذا الذى استقر فى نفس هذا الاعرابى ، انما جاء بعدتجربة عرف منها أن محمدا لا يضع نفسه فوق هامات الناس ، ويميز نفسه عنهم ، وان كان الناس هم الذين يميزونه ، ويضعونه فوق هاماتهم، اجلالا واكبارا ومحبة •

وجاء له مرة أخرى رجل له دين يطالبه به ، فأغلظ له القول ، وقال له « انكم يابنى هاشم قوم مطل » فرماه هو وأسرتهبالمماطلة فى اداء الديون ، والرسول بين اصحابه يتمتع بالاكبار والاجـلال وكل منهم يود لو يفتديه بنفسه ، ولذلك استثارهم كلام هذا الرجل الجاف السليط اللسان ، وقام عمر من بينهم يستأذن الرسول فى تأديب هذا الرجل ، ولكن الرسول حليم النفس ، كريم الطبع ، يسمو بنفسه عن الخضوع لمثل هذه المؤثرات ، ليعلم أصحابه وكل

من يأتى بعدهم من الحكام والمحكومين على السـواء ، كيف يكون السمو والحكم ، فقال لعمر : لقد كنا أحوج الى غير هذا منك ياعمر ، تأمره بحسن القضاء ، وتأمرنى بحسن الأداء ·

وسرت هذه الكلمات فى نفس عمر فسكن غضبه ، وتعلم الطريقة المثلى فى المعاملة ، وأصبح الجيل بعد الجيل يروى هذا عن الرسول ، فيعجب لهذه النفس الكبيرة ، ويقف أمامها فى خشوع واجلال ، يروى نفسه الظامئة من هذا النبع الربانى ، الذى جعله الله هداية وحياة ، وقدوة للأمم ، تتعلم منه كيف تكون المساواة ، بل كيف يكون السمو ، حين يحتاج كل منهم لرجل يذكره بالحق والطريق الأقوم ·

لا يغضب الرسول لنفسه ، ولا يعترض على الرجل ، ولكنه يعترض على عمر الذى ثار ، ويقول له ، كنت أنا وهذا الرجل نحتاج لنصيحة منك · صلى الله عليك وسلم يارسول الله ·

وهكذا كان الرسول طول حياته ·

فقد كان عليه الصلاة والسلام يسوى صفوف الجند يوم بدر ، فضرب بطن رجل كان متقدما على الصف ليسويه فقال الرجل لقد أوجعتنى ، فأنصفنى ، فقال الرسول « دونك بطنى فاقتص منى » فأبى الرجل وقبل بطنه ، وصار يقـول ويردد ، اليـوم أفدى المصطفى بحياتى ·

وقد أصبح هذا الأمر أمر المساواة بين الرسول وعامة أصحابه معروفا ، حتى رأينا صحابيا جليلا يستغله لحاجة كريمـة فى نفسه ، يرجو من ورائه تحقيقها ·

فقد أراد « عكاشة » يوما أن يرى ما فوق كاهل الرسول من شامة ، فاحتال لذلك ، وقال له عليه الصلاة والسلام لقد ضربتنى

فى ظهرى ـ من غير حق ـ حتى كدت تدمينى ، وكان ذلك منذ زمن وانى أريد أن تكشف لى عن ظهرك لأقتص منك .

فقال الرسول : انى لا أذكر هذا ، ومع ذلك فهاك ظهرى ، فاقتص كما تشاء ، وكشف له عن ظهره ، فانكب عكاشة يقبل تلك الشامة ، ويكبر الله ، ويقول : لقد ظفرت بأمنيتى ، وأخذ يردد قوله تعالى لرسوله « **وانك لعلى خلق عظيم** » .

ولقد بلغ من حرص الرسول على توكيد هذه الروح ـ روح المساواة بين الحاكم والمحكوم ـ فى نفوس اتباعه انه ـ وهو فى شدة من مرضه الأخير ـ يخرج من بيته الى الناس ، وهم مجتمعون فى المسجد ، وهو يتكىء على الفضل بن العباس ، وعلى بن أبى طالب ويأخذ طريقه الى المنبر ، ليجلس عليه ، ويقول للناس : « أيها الناس من كنت جلدت له ظهرا ، فهذا ظهرى ، فليستقد منه ، ومن كنت أخذت له مالا فهذا مالى فليأخذ منه ، ولا يخشى الشحناء من قبلى ، فانها ليست من شأنى .

ويمضى الرسول ليزيد من توكيده لهذه الروح ، وتشجيع أصحاب الحق ـ ان كانوا ـ على المطالبة بحقوقهم فيه فيقول « الا وان أحبكم الى ـ نعم أحبكم الى ـ من أخذ منى حقا ، ان كان له ، أو حللنى ، فلقيت ربى وأنا طيب النفس ، ثم نزل صلى الله عليه وسلم ، فصلى بهم الظهر ، ثم عاد الى مقالته الأولى ، ليزيد هذا المعنى وضوحا ورسوخا .

وما كان الرسول ليخرج الى الناس ، وهو مريض لا يستطيع المشى ، فيسنده الفضل وعلى ، ويقول هذا الكلام ، ويعلنه على الحاضرين ، ثم يعود ليؤكده بعد الصلاة مرة أخرى ، أقول ، ما كان الرسول يهتم هذا الاهتمام ، لولا أن الأمر خطير ، والمبدأ عظيم ، يحتاج الى هذه العناية ، وهذا الحرص ليعلم من لم يكن يعلم ،

ويزداد تأكيدا من علم من قبل ، أن الاسلام يعتبر هذا الأمر من أهم الأمور التى يجب أن يفهمها المسلمون ولا سيما حكامهم ، ويعملوا بها فى حياتهم ، حتى لا ينتكسوا ، ويعودوا الى داء الأمم قبلهم فيميزوا بين الحاكم والمحكوم ، ويجعلوه فوق القانون ، فيفعل ما يشاء دون رادع أو زاجر ، فيختل التوازن ، ويصبح الحكام قادة فى الشر لا فى الخير ، ويصيروا عاملا قويا فى هدم أممهم وتشجيعها على الانحراف ، ومخالفة القانون ، والاستهتار به ·

وهل هناك أخطر على حياة الأمم من هذه الروح السيئة ، حين يستقر فى الأذهان أن المحكوم لا يستطيع أن يأخذ حقه من حاكمه ، وأن الحاكم قدوة سيئة لرعاياه فى الاستهتار بالقانون والعبث به ، وأنه لامساواة بينهم وبينه أمام القانون · ان ذلك هو ما أشار اليه صلوات الله وسلامه عليه حين قال « انما أهلك من كان قبلكم انهم كانوا اذا سرق فيهم القوى تركوه ، واذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد » ·

الخلفاء والمساواة :

وتوفى الرسول صلى الله عليه وسلم ، بعد أن أرسى قواعد العدل فى أمته ، وغرس فى نفوس المسلمين روح المساواة الحقة ، حتى لا يتميز واحد من رعايا الدولة الاسلامية فيها ولو كانت فاطمة بنت الرسول ، بل ولو كان الرسول نفسه الذى اصطفاه الله ، وجعله كل مسلم أحب اليه من نفسه وولده والناس أجمعين ·

ولكن ربما تتطاول ألسنة فتقول : تلك أخلاق الرسل الذين اصطفاهم الله ورباهم ، فكانت أخلاقهم ربانية ، ولئن كانوا مقياس دين جاءوا به لما أمكن أن نعتبرهم مقياس أمة ·· لذلك كان من اللازم أن نعرض صورا أخرى مثالية ، لهؤلاء الحكام المسلمين الذين

رباهم الاسلام وصبغوا بصبغته ، وصقلوا بتهذيبه ، فساروا على نهجه ، وحكموا أمتهم على هديه ، فكانوا مثلا عالية للحكام ، حين يقفون مع المحكومين أمام عدالة القانون ينتظرون حكمه ، وينفذونه كأى فرد آخر من رعاياهم ، وللنفوس هواهاوشهواتها ، التى تستبد وتطغى ، عندما نحس سيطرتها على الناس ، الا من هداه الله

ولعل الحكمة فى هذه المساواة العامة التى قررها الاسلام بين الحاكم والمحكوم ، أن القانون الذى يحكم الجميع ليس من صنع بشر يحاولون أن يحموا أنفسهم من سطوة القانون ، بل من صنع الله الذى لايميز أحدا على أحد ، لأنه ذو مال أو جاه وسلطان ، وانما يميزه بعمله وتقواه ، وخضوعه لأحكامه ، وميزته عنده مغفرة منه ورحمة ورضوان ، وليست تحللا من قانون ، ولا تعاليا على سلطان ـ ومن أجل هذا يأمر الله الحاكم والمحكوم ، حين يتنازعون على أمر من الأمور ، أن يجعلوا مرجعهم كتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام ، فقال : « **يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم • فان تنازعتم فى شيء فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، ذلك خير وأحسن تأويلا** » •

فلأنه تشريع الله كان لا بد أن يخضع له البشر على سواء ، خضع له الرسول ، وحرص على تأكيد خضوعه له وخضع له أصحابه الحكام ، لتكون فى الرسول وفيهم القدوة الحسنة لأمتهم •

الصديق :

فقد بلغ من حرص أبى بكر على هذا المبدأ أن أعلنه فى أول كلمة ألقاها على المسلمين كدستور يلتزمه فى سيرته معهم فقال : « أيها الناس انى وليت عليكم ولست بخيركم ، فان رأيتمونى على حق فأعينونى ، وان رأيتمونى على باطل فسددونى ، أطيعونى ما أطعت الله فيكم فان عصيته فلا طاعة لى عليكم •• »

ففى كل فقرة من هذه الفقرات الحكيمة تشع هداية هذا المبدأ ـ مبدأ المساواة ـ فى نفس الخليفة ، ومنها الى الذين يستمعون اليه ، ويبلغهم كلامه ، وليت عليكم ولست بخيركم ، وبعد ذلك يطلب منهم أن يراقبوه ليقوموه ويرجعوه الى الحق اذا حاد عنه ، شأنه شأن أى فرد من الناس ، ثم يعلن فى وسطهم أن الحاكم المطاع انما هو الشريعة ، فان سرت عليها فسيروا معى ، واسمعوا توجيهى وأمرى ، وان خرجت عليها فلا تسمعوا لى رأيا ولا توجيها ، ثم عليكم أن تردونى الى الصواب منها •• وهكذا تكون المساواة ودستورها فى الحكم يؤكدها أبو بكر ، ويؤكد معها مبدأ مراقبة الأمة للحاكم فى ظل قانون السماء ، وقد رأينا ٥وقد ولى الخلافة ، يخرج للتجارة ، ليأكل هو وأولاده ، كما يفعل الناس ، وكما كان يفعل قبل الخلافة ، فيرده المسلمون عن ذلك ليفرغ لشئونهم ، على أن يكفوه ذلك من بيت المال •

الفاروق :

وجاء عمر ـ رضى الله عنه ـ من بعده وقد اتسعت رقعة الدولة الاسلامية ، وتدفق المال من الأراضى المفتوحة على مركز الخلافة فى المدينة ، مما لم يعهد له مثيل قبل ذلك ، فما تغير به عمر ولاحاد عن الحق ، ولا اعترف لنفسه بحق يزيد على رعيته فى هذا المال ، ولكنه كراعى مال اليتيم يأكل منه بالمعروف ، وكان على نفسه وأسرته أشد تضييقا منه على رعيته فى الاستمتاع بهذا المال ، فكان يلبس المرقعات ، وغيره يلبس ما شاء ، وكان لا يبلغ فى توفير حاجته لبيته ما تبلغه بيوت المسلمين ، وكانت امرأته تشتهى الحلوى فلا تجد سبيلا اليها ، لأنه لا يريد أن يأخذ من مال المسلمين ما يزيد عن حاجته الضرورية ، أما الحلوى فشىء كمالى ، لا يمكن أن يتناوله ، وفى المسلمين بيت يحتاج للضرورى من الطعام •

ويوم وفرت زوجته من طعامها الضرورى ما اشترت به الحلوى لم يقرها عمر ، بل انقص من راتبه الذى يأخذه من بيت المال مقدار ما استطاعت زوجته توفيره للحلوى ٠٠ وفى بيوت المسلمين كثير يتمتعون بالحلوى والفاكهة ، ولكن بيت عمر الخليفة كان محروما٠٠ وكان يقسم ثيابا من الحرير على نساء المدينة فبقى ثوب واحـــد يبحثون له عن امرأة تستحقه ، فقال أحد الجالسين ، اعط هـــذا الثوب زوجتك ابنة رسول الله ٠٠ يريد أم كلثوم بنت علي وفاطمة ـ رضى الله عن الجميع ـ ولكن عمر قال لا ٠٠ ان أم سليط أحق به ، فانها كانت ترفي لنا القرب يوم « أحد » وكانت ممن بايـــع الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهكذا جعل الخليفة العمل أساس التفضيل ، لا النسب ولا القرب من الحاكم ٠

وفى عام المجاعة يظهر الخليفة بمظهر المساواة الحقة بينـــه وبين رعيته ، فيلزم نفسه الأكل مما يأكل منه أقل الناس ، حتى ظهر أثر ذلك على جسمه ، وتغير لون وجهه مما أكل من الزيت ، وكان قبل المجاعة يأكل السمن واللبن ، ورأى بطيخة فى يد ولد له فثار واحتد ، كيف يأكل ابنه البطيخ ويتفكه بالحلوى والناس فى مجاعة ومسغبة وقال له يؤنبه ٠ بخ بخ يابن أمير المؤمنين ٠٠ تأكل الحلوى وأمة محمد هزلى !

وهذا نوع من المساواة بين الحاكم والمحكومين نفتقده فى هذه الأيام فى المجتمعات فلا نرى له أثرا ٠

ويسترعى نظرنا ما حدث عند أول خطبة لعمر بعد توليتـــه الخلافة ، وعمر كان معروفا بالشدة ، فقد اعلن دستوره ،الذى هو دستور الخليفة السابق ، أبى بكر ـ رضى الله عنهم ـ :

« ان رأيتمونى على حق فأعينونى ، وان رأيتمـــونى على باطل فسددونى » ٠

وسمع الناس هذا الكلام ، وحمدوا الله واطمأنوا ، لأنهم كانوا يخشون حدته .. لكن رجلا من السامعين لم يكتف بهذا الاطمئنان ويسكت كما سكت الناس ويحمد الله .. بل دفعه ايمانه وما يشعر به من عدالة وحرية الى أن يقوم وسط الناس ، ويعلن فى صراحة وصرامة ، موجها كلامه لعمر قائلا له : والله لو رأينا فيك اعوجاجا لقومناه بحد سيوفنا » .

واذا كان هذا رائعا حقا ونادرا بين الأمم ، حتى ليلهث التاريخ حين يبحث عن مثيل له فى صفحات الأمم والرجال .. فان الأروع منه حقا ، هو موقف الخليفة عمر ، حيث يسمع هذا الكلام ، وهو الخليفة الشديد البأس الذى خاف الناس بطشه وشدته .. فلم يغضب عمر لهذا الكلام ، ولم يثر ، ولم ير فيه افتداء على مقام الخلافة أو سلطان الحاكم ، يجرىء الناس عليه ويدفعهم الى التهاون به ، بل نظر عمر الى الموقف نظرة المربى الحدوب العطوف ، حينما يرى آثار التربية الحقة قد بدأت تؤتى ثمارها فى النفوس ، وحينما يرى أن تعاليم السماء قد تشربتها القلوب .. فلم يعد أمامها غير الله تعبده وتخشاه ، أما الناس فهم أمامه وأمام شريعته سواء ، يستوى الحاكم والمحكوم ــ نعم نظر عمر هذه النظرة الواسعة الى موقف الرجل المؤمن ، فلم يغضب ، بل فرح واطمأن على ان التربية الاسلامية أثمرت ثمرتها ، فقال معلقا على كلام الرجل المؤمن مشجعا أمثاله على أن ينسجوا على منواله ، فى مواقف الحق والصدق :

« الحمد لله الذى جعل فى أمة محمد من يقوم عمر بحد سيفه »

فدوى هذا الكلام ، كما دوى من قبله كلام هذا الرجل ، وأخذت هذه الحادثة طريقها الفسيح الى مكانها العظيم ، فى تاريخ العظمة والعظماء ، عظمة الخلق ، وعظماء النفوس ، لتروى للناس ماذا فعل الاسلام فى النفوس ، حين جعل الحاكم يستمع مثل هذا الكلام ، فلا يغضب ، بل يسر به لأنه عنوان النضج والتيقظ فى الأمة ، وهو

لا يريد أن يحكم أمة غافلة خنوعة مستكينة لا يريد أن يكون أسدا يحكم نعاجا ، بل يريد أن يكون أسدا يحكم أسودا ، يريد أن تكون كل أمته مثل هذا الرجل الشجاع ، فان فى وجود أمثاله ضمانا للأمة من اعوجاج الحاكم وطغيانه عليها .

أما هو فخادم أمين ، وحاد بصير فى ركب نهضتها وقوتها ، وفى توفير العدل والأمن فيها .

***

ولم يكن كلام عمر كلاما نظريا ، ألقاه ليكسب عواطف الناس ويلعب بعقولهم ، ويستولى على قلوبهم ، وينتزع منهم اعجابهم ... أو كما يقولون بلغة العصر الحديث « للاستهلاك المحلى » ثم لا يكون له أثر بعد ذلك فى سيرته .. كلا .. فلم يكن عمر من هذا الصنف من الناس الخداعين ، الذين يخشون الناس والله أحق أن يخشوه .. بل كان دائما رجل ايمان وجد ، يعنى ما يقول ، نعرف ذلك من تاريخ حياته قبل الخلافة ، وفى عهد الخلافة أيضا .. يأخذ نفسه وأسرته بشريعة الله ، قبل أن يأخذ الناس بها .

فمما رواه التاريخ ، وتغنى به فى هذا المضمار الذى تتساقط فيه نفوس قوية ، وتذوب أمام عاطفتها ، أن عبد الرحمن ابنه — وكان بمصر — قد شرب مع آخر حتى سكرا فندما وذهبا معا الى والى مصر « عمرو بن العاص » يعترفان له ويطلبان منه اقامة الحد عليهما ، وروى عمرو بن العاص القضية فيقول « فزجرتهما وطردتهما .. فقال عبد الرحمن — وأنعم بما قال — ان لم تفعله أخبرت أبى اذا أقدمت عليه ، فعلمت أنى ان لم أقم الحد عليهما ، غضب على عمر ، وعزلنى ، — نعم وهكذا عمر — فأخرجتهما الى صحن الدار وضربتهما الحد ، ودخل عبد الرحمن بن عمر الى ناحية فى الدار فحلق رأسه ، ووالله ما كتبت لعمر بحرف مما كان ، حتى جاءنى

كتابه فاذا فيه « من عبد الله عمر أمير المؤمنين ، الى العاصى ابن العاصى .. عجبت لك يا بن العاص ، وجرأتك على ، وخلافك عهدى ـ فما أرانى الا عازلك ، **تضرب عبد الرحمن فى بيتك وتحلق رأسه فى بيتك !.. وقد عرفت أن هذا يخالفنى .. انما عبد الرحمـــن** رجل من رعيتك ، تصنع به ما تصنع بغيره ، فاذا جاءك كتابى هذا فابعث به فى عباءة على قتب ، حتى يعرف سوء ماصنع ». فبعثت به كما قال أبوه ، وكتبت الى عمر كتابا أعتذر فيه ، « انى ضربته فى صحن دارى وبالله الذى لا يحلف بأعظم منه انى لأقيم الحدود فى صحن دارى على الذمى والمسلم ، وبعثت بالكتاب مع عبـد الله ابن عمر ، فقدم بعبد الرحمن على أبيه ، فدخل وعليه عباءة ، ولا يستطيع المشى من سوء مركبه .. فقال يا عبد الرحمـــن فعلت ، وفعلت ، فكلمه عبد الرحمن بن عوف وقال يا أمير المؤمنيـن ، قد أقيم عليه الحد ، فلم يلتفت اليه ، وجعل عبد الرحمن بن عمـــر يصيح » اننى مريض وانك قاتلى » ، ولكن عمر برغم ذلك أقام عليه الحد ، حتى لتقول الروايات انه مات ، وهو يضربه ، فلم يسكت عنه ، بل استمر يضربه ليستوفى الحد المعلوم ، مبالغة منـــه فى اقامة الحد على فلذة كبده ، ليعلم الناس جميعا انهم ســـواء أمام شريعة الله ..

وقد كان لعمر مندوحة لو سكت ، فقد أقيم الحد على ابنـــه ، كأى فرد من الناس ، ونفذت الشريعة فيه ، فليس هناك مجال لقائل وكان هذا يكفى ، كما قال عبد الرحمن بن عوف ، ولئن غضب على اقامة الحد عليه فى بيت الحاكم ، ظنا منه أن هذه محاباة له ، لأنه ابن أمير المؤمنين ، لقد حلف له عمرو ، أن هذا هو مكان اقامة الحد لجميع الناس ـ المسلم والذمى ـ وكان من الممكن أن يكتفى عمر بهذا ، ضامنا أن الشريعة قد نفذت بدقة على ابنه ،وانه بذلك قد برئت ذمته ، ولكن حمله على هذا احساسه القـــوى المرهف ،

ورغبته في أن يكون أشد على نفسه وولده منه على الناس ، ولا شك أن هذه الصورة التي أكمل بها عمر الخليفة قصة ولده ، لا تدع مجالا في نفس انسان ليشعك في أن عمر يرحمه لو ارتكب ذنبا من الذنوب ، بل تجعله يوقن أن السطوة والقوة لشرع الله .. لا لعمر ولا لأى انسان ... فهل بعد ذلك تسول لأحد نفسه في أن يفلت من عقاب اذا اجترأ على مخالفة شرع الله .

ولئن كان بعض الباحثين مثل الأستاذ عباس محمود العقاد قد استبعد أن يضرب عمر ابنه وهو ميت ، لقد بقي لنا أنه أعاد عليه اقامة الحد وهو مريض ، وهذا أكبر شاهد على شـــدة عمر في حسابه لنفسه وأولاده تسوية لهم بالرعية ، بل وفوق التسوية

* * *

وكان في سياسة عمر هذه مع نفسه ، هي سياسته مع ولاته وعماله في معاملتهم للناس ، فهو لا يقبل أن يحابي الوالي قريبه ، ويتركه يعتدي على الناس دون قصاص منه ، كما لا يقبـــل أن يستغل الوالي سلطته لايذاء الناس ، وكان حريصــا على أن تعلم رعيته منه ، حتى لا تخنع لحاكم ، أو تسهل له السبيل لاســاءة سلطته ، حين تقبل ظلمه واساءته ، فكان يقول لهم «انى لم أرسل عمالي عليكم ليضربوا ابشاركم ، ويشتموا أعراضكم ، ويأخـذوا أموالكم ، ولكنني استعملتهم ليعلموكم كتابه وبكم وسنة نبيكم ، فمن ظلمه عامله بمظلمة .. فلا اذن له على ليرفعها الي حتى أقصه منه .» .

ولم يكتف رضي الله عنه بهذا القول ، بل أخذ التطبيقه طريقا عمليا ، فكان يعقد في موسم الحج مؤتمرا عاما ، من جميع ولاته في الاقطار ، والناس من حولهم ، مفتشا عن أعمال الولاة موجها لهم ، ومستمعا الى شكاية المظلومين من الرعية ، حتى لا يحال بين مظلوم ، وبين رفع شكواه ، والوصول الى الانصاف الذي يبتغيه .

وبذلك استقر في نفس الرعية أن كل مظلوم ينال حقه ، ولو كان ظالمه هو نفس حاكمه

وليس هناك عدل واستقرار يملأ الدولة أمنا وسلاما مثل هذا ..

ولذلك رأينا كثيرا من أفراد الرعية ، يرفعون شكواهم الى عمر من ولاتهم ، ويقطعون مئات الأميال الى المدينة ، واثقين أنهم سينالون حقهم ويظفرون من عمر بانصافهم .. وما كان من الممكن أن يقدم مظلوم على قطع هذه الأميال ، لولا أنه واثق من العدل والمساواة ..

فهذا محمد بن عمرو بن العاص يتسابق مع مصرى فيغلب ، ويحدث بينهما احتكاك يدفع محمدا الى ايذاء المصرى ، معتزا بأنه ابن الوالى مفتخرا بأنه ابن الأكرمين .. وكان من الممكن أن تنتهى هذه الحادثة الفردية كما تنتهى أية حادثة أخرى .. لولا حرص المصرى على حقه ، وشعوره بأن الوالى عمرو بن العاص ربما لا ينصفه من ابنه ، واحساسه أن هناك بالمدينة حاكما عادلا ، يستطيع أن يجد حقه عنده .. وهانت الأميال الطوال ، والمشقة العسيرة فى نظر المصرى ، أمام هدفه الذى يبتغيه ، فشد رحاله الى المدينة ، واستمع عمر الى شكواه ، وأرسل الى عمرو يستدعيه مع ابنه ، وجلس الوالى مع ابنه وجها لوجه أمام خصمهما المصري فى مجلس الخليفة ، وحين تحقق عمر من صحة الشكوى ، ناول المصري « درته » المعروفة وقال له : دونك الدرة ، فاضرب بها ابن الأكرمين ، يشير بذلك فى سخرية الى ما قاله محمد بن عمرو حين ضرب المصرى .. فتناول الدرة ، وأخذ يضرب بها محمدا حتى أوجعه واقتص منه ، وعمر — رضى الله عنه — مغتبط بهذا القصاص ويقول : اضرب ابن الأكرمين ، اضرب ابن الأكرمين ، حتى اذا فرغ الرجل من الاقتصاص لنفسه ، ذهب الى عمر يناوله الدرة ، ولكن

عمر الحصيف الشديد في عدله ، يذهب الى أبعد من هذا ، وكأنه يتتبع بذلك الداء من أساسه ليقضي عليه ، اذ يعرف أن محمـــدا استغل سلطان أبيه ، في ضرب فرد من رعيته ، ويعـرف أن عمرا الحاكم لم ينصف المصرى من ابنه ، والا لما حمل نفسه مشـــاق السفر للمدينة ٠٠ فليكن له اذن نصيب من القصاص ، ولا بد أن يعرف عمرو ذلك ، حتى يؤدب هو وأمثاله من الحكام أبناءهم ، فلا يعتدوا ، ولا يستغلوا سلطان آبائهم ، وقال عمر للمصرى « أجلها ــ أى الدرة ــ على صلعة عمرو ، فوالله ما ضربك ابنه الا بفضـــل سلطانه » فقال عمرو « يا أمير المؤمنين قد استوفيت واستشفيت » وقال المصرى « يا أمير المؤمنين قد ضربت من ضربنى ، فقال عمر : « انك والله لو ضربته ما حلنا بينك وبينه ، حتى تكون أنت الذى تدعه » ٠٠ والتفت الى عمرو مغضبا ، وقال قولته الخـــالدة التى أصبحت شعار دنيا العدل والحرية « أيا عمرو ٠٠ متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا » ٠٠

وكان درسا لعمرو وأمثاله فى زمانه ، ولمن يأتى بعده الى أن تقوم الساعة ٠٠

صور عمرية يحلو لنا أن نستعرضها ونعطر جو هـذا الزمـان بذكرها ، لعلها تصادف نفسا خصبة ، تنطبع فيها ، وتحـاول التأسى بها ، أو على الأقل تطبع مثلا عاليا فى نفوس المسـلمين ، يجهدون أنفسهم للحاق بها ، ويراقبون حكامهم على ضوئهـا ، ويعرفون أن ماضيهم المجيد انما قام على دعائم من العدل والمساواة، أسسها الحاكم ، واطمأن اليها المحكوم ، فانصرفوا جميعا الى بنـاء المجد والعزة لأنفسهم ودينهم ٠

وقع خلاف بين الصحابى الجليل أبى موسى الاشعرى ــ وكان واليا للخليفة فى العراق ــ وبين أحد الجنود المحاربين ، حـول

ما غنمه هذا الجندى فى الحرب ، فقد أصر على أن يأخذه لأنه حقه، أما أبو موسى ، فقد أبى عليه ذلك ، وضربه وقص شـــعره •• تأديبا له • وكان من الممكن أن تنتهى هذه الحادثة عند هذا الحد ، ويسكت الجندى راضيا ، ولكن شعوره بالمساواة ، وثقتـــه فى العدل يجدهما عند الخليفة ، دفعاه الى أن يشد رحاله الى المدينـة غير خانع ، ليشكو الوالى الى عمر ، وحمل الرجل شعره الذى قصه أبو موسى معه كدليل له على شكواه ، حتى اذا بلغ المدينة ، ووقف أمام عمر ، لم يبدأ بالشكوى والكلام ، ولكنه ألقى شعره فى وجه الخليفة ، وهو يقول له : تلك آثار عمالك •• فمن أين لهذا الجندى هذه الجرأة التى دفعته الى فعل ما فعل ، متعديا حـــدود الشكوى الطبيعية ، أما خشى على نفسه غضبة عمر لشخصه ؟!•• ان هذا شيء يدعونا الى أن نفكر فنقرر أن ايمان الرجل بحقه وبرحابة صدر الخليفة للمظلوم ، ولو تجاوز حده ، جعله يفعل ما فعل وهو آمن• نعم ••• فلعل عمر يتذكر فى مثل هذه اللحظة قول الرســـول الكريم ــ عليه أفضل الصلوات والتسليم ــ له ، حين هم بضرب الرجل الذى جذب الرسول من ثوبه يطالب بحقه « دعـــوه ، فان لصاحب الحق مقالا » •

وتحققت فعلا ثقة الرجل فى عمر ، فلم يغضب ، بل استوضح الرجل قصته فى رحابة صدر، وانشراح قلب ، وعمر شجاع أبى يحب الشجاعة والاباء ، ويغتبط اذ يرى فى المسلمين مثل هـــذا الجندى ، الذى يأبى الضيم على نفسه ، ولو من حاكمه المســـلم ، فان مثل هذا الرجل حرى بالدفاع عن نفسه وعن المسلمين لو مسهم ضيم من أى حاكم آخر ، مهما كانت سطوته وكان جبروته، والاسلام يحب الرجل القوى فى حقه الذى يدفع البغى عن نفسه : « **لا يحب الله الجهر بالسوء من القول الا من ظلم وكان الله سميعا عليما** » ، « والذين اذا أصابهم البغى هم ينتصرون وجزاء سيئة سيئة مثلها»

((فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم)) ((ولمن انتصر بعد ظلمه فاولئك ما عليهم من سبيل))

وعمر ـ رضى الله عنه ـ يعرف كل هذا تمام المعرفة واليقين ، وهو الذى كان دائما يحرص على الانتصاف من الظالم ، مهما كانت قوته ، فلا عجب ان لم يغضب ، بل كان العجب أن يغضب من فعل هذا الرجل ، وكان ـ رضى الله عنه ـ متسقا مع طبيعته الصريحة القويه حين أعلن اغتباطه وسروره بما فعل هذا الجندى الشجاع ، وقال : « لأن يكون الناس كلهم على صراحة هذا الرجل فى حقه ، احب الى من جميع ما أفاء الله على » . نعم فقد كان هذا هو المنتظر من عمر ..

ثم كتب الى عامله أبى موسى الأشعرى يقول له : « ان كنت فعلت هذا فى ملأ من الناس فعزمت عليك لقعدت له فى ملأ من الناس ، حتى يقتص منك ، وان كنت فعلت هذا فى خلاء من الناس فاقعد له فى خلاء من الناس » .

وعاد الرجل ظافرا بحقه وتسلم أبو موسى الكتاب منه ، فلم يجد بدا من الخضوع والاستسلام ، وقعد للقصاص ، ونظر الجندى الى حاكمه أبى موسى يخضع لأمر عمر ، ويقعد لفرد من أفراد الرعية يقتص منه ، فراعه هذا المنظر ، وراعه أكثر منه أن يرى ما لم يكن يراه من قبل ، يرى حاكما يستوى مع المحكومين ، ويسرى عليه ما يسرى عليهم ، وراعه هذا المثل الأعلى من المساواة الحقة ، وكان الرجل الشجاع ذا مروءة أيضا ، فأبت نفسه أمام هذه الروعة أن تمتد يداه الى ابى موسى بأذى ، بل مدهما الى السماء فى فرح وغبطة واطمئنان وايمان ، يناجى ربه ، ويشهد الناس ويقول : « اللهم انى قد عفوت عنه » ... نفوس كبارا صنعها الاسلام .

وقصة أخرى مع أبى موسى نفسه . فقد تجاوز فى اقامة الحد على شاب حيث جلده ، وحلق شعره وسود وجهه ، ونادى فى الناس ألا يخالطوه ، وذلك أمر لم يعهده الشاربون في الحد ـ ولذا لجأ هذا الرجل الى الخليفة يشكو اليه عامله ٠٠ ورأى الخليفة أن الرجل قد ظلم حقه ، فأرضاه بمائتي درهم أعطاها له ، وكتب الى أبى موسى يقول لئن عدت لأسودن وجهك ، ولأطوفن بك فى الناس ثم أمره أن يعلن فى الناس مرة ثانية ، أن يؤاكلوه ويجالسوه ويلغى ما قاله من قبل

وهكذا كان يجد المظلوم من ينتصف له ولو من حاكمه

أعجبنى ما يقوله الأستاذ العقاد فى كتابه « الديمقراطية فى الاسلام » بعد أن سرد بعض هذه الحوادث « فقبل هذا العـدل من الفاروق ، مقدمات سبقت ، وعلمت الناس أن الشكوى من الظلم عمل مجد ، وأن انصاف المظلوم من الظالم حقيقة واقعة ، بالغا ما بلغ من جاه الظالم وبالغا ما بلغ من هوان المظلوم ٠ قبل عدل الفاروق ، ثقة الناس بالعدل الذى لا شك فيه ، ولا خطر على الشاكين الضعاف من المشكوين الأقوياء ٠ قبل أن نسأل : كيف عدل عمر ؟ ينبغى أن نسأل كيف علم الناس من الحجاز الى مصر ، ومن العـراق الى الحجاز ، ومن المسلمين والذميين ومن العلية والسوقة ، ان العدل كائن ، وأن طريقه مأمون على طالبه ، وانه أقرب منالا من الصبر على الظلم وان هان » ٠٠ ثم يقول « أمن المألوف فى عصرنا هذا أو فى عصر مضى أن يساق فاتح القطر بسيفه مئات الفراسخ والأميـال لأن ابنه رفع سوطه على فتى من الفتيان في حلبة سباق ؟ أمن المألوف أن يخف الشاكى هذه المئات من الفراسخ والأميال ، وهو على يقين من عاقبة هذه الرحلة ، وعلى أمان من نقمة الفاتح الظافر الذى يشكوه ٠ أمن المألوف أن يتساوى الملوك والسوقة من أجل

لطمه ·· وان يتساوى الامير والجنـدى ، ضربة بضربة ، واذلالا باذلال ، على مشهد من أتباعه ورعاياه ؟

موضع الدهشة : قبل العدل ثقة بالعدل ، لايخامرها الشـك والتردد ··

ذاك شيء واقعى ، تتقطع دونه اعناق المنادين بالديمقراطية ، بل انهم لينظرون الى هذا نظرتهم الى قصص خياليـة ، لا سبيل لأنفسهم أن تجذبها الى عالم الواقع ·· ذلك لان ديمقراطيتهم تصنع وادعاء أجوف ، أما تلك فهى ديموقراطية الاسلام ، التى صبغ الله بها نفوس بنيه وقادته « **صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة** » ·

العدل هبة الحاكم :

ولعل المسلمين من طول ما لبثوا فى الظلم والتباعد عن هـذه المثل الواقعية ينظرون الى هذا نظرتهم كذلك الى الخيال ، وربما يرى كثير منهم أن ذلك شيء غير مستساغ ، ابقاء على هيبة الحاكم·· ولكنهم ينسون أن هيبة العدل أولى من هيبة الحاكم ·· وأن العدل متى استقر فى النفوس ، كان ذلك أيضا هيبة الحاكم وقوة السلطان – فالأمر كما يقول « عمير بن سعد » أحد ولاة عمر فى الشـام : « **ليست شدة السلطان قتلا بالسيف ولا ضربا بالسـوط ، ولكن قضاء بالحق وأخذا بالعدل** » ·

ففى سريان العدل ضمان لهيبة الحاكم ، وتدعيم الحكم ، وليس فى غيره مما يتحمله الناس ·

شريح القاضى المسلم :

وتختم هذه الصور الرائعة بأروع مثل فيها وقع مع عمر نفسه، فقد أخذ فرسا من بائع وركبه ليشوره ويختبره ، فحصل له بعض

العطب ، فقال للرجل : خذ فرسك ، ولكن الرجل أبى أن يقبله ، وقامت خصومة بينه وبين الخليفة ، فقال الخليفة : اجعل بينى وبينك حكما ، قال الرجل : شريح ٠٠ ورضى الخلية وتحاكما اليه ، وأصبح الرجل والخليفة سواء أمام القضاء ، ونظر شريح القضية ثم أصدر حكمه على الخليفة وقال له : أخذت الفرس صحيحا سليما، فيجب أن ترده صحيحا سليما ، فخذ ما ابتعت أو رد كما أخذت ٠٠ وتقبل عمر الحكم بصدر رحب ، بل بما هو أكثر من ذلك ، فقد رأى فى شريح قاضيا عادلا ، ينطق بالحق ، ولا يبالى ، فسر به وقال : وهل القضاء الا هكذا ٠٠ وبعثه الى الكوفة قاضيا عليها ، وبقى شريح قاضيا هناك ستين سنة ٠

فهل نرى فى باب المساواة أروع من هذا ؟

وقد كان لشريح هذا موقف مع على بن أبى طالب وهو أمير المؤمنين ، فقد ضاعت درع أمير المؤمنين ثم وجده عند رجل نصرانى فأقبل به الى شريح قاضيه ، يخاصمه مخاصمة رجل من عامة رعاياه ، وقال : أنها درعى ولم أبع ، ولم أهب ، فسأل شريح النصرانى ، ما تقول فيما يقول أمير المؤمنين ؟ فقال النصرانى : ما الدرع الا درعى ، وما أمير المؤمنين عندى بكاذب ، فالتفت شريح الى على يسأله : ياأمير المؤمنين ، هل من بينة٠٠ فضحك على وقال: أصاب شريح ، ما لى بينة ، فقضى بالدرع للنصرانى ، فأخذها ومشى وأمير المؤمنين ينظر اليه ٠٠ الا أن النصرانى لم يخط خطوات حتى عاد يقول : أما أنا فأشهد أن هذه أحكام أنبياء ٠٠ أمير المؤمنين يديننى الى قاضيه فيقضى عليه ٠٠ أشهد أن لااله الاالله وأن محمداً رسول الله ٠٠ الدرع والله درعك يا أمير المؤمنين ، اتبعت الجيش وانت منطلق الى صفين ، فخرجت من بعيرك الأورق ، فقال على أما اذا أسلمت فهى لك ٠

وهذا المأمون الخليفة العباسى ، يختصم مع رجل بين يدي يحيى بن أكثم قاضى بغداد ، ويدخل الى مجلسه ووراءه خادمه يحمل طنفسة لجلوس الخليفة، فيرفض القاضى أن يتميز الخليفة فى مجلسه عن أحد من رعيته ، وقال : يا أمير المؤمنين لا تأخذ على صاحبك شرف المجلس دونه ، فاستحيا المأمون ودعا بطنفسة أخرى يجلس عليها خصمه

وهكذا سوى القاضى بين الخليفة وبين خصمه ، فى أمر بسيط خشى أن يكون مظهرا من مظاهر التفرقة بينه ، وبين أحد أفراد رعيته ..

واذا عبرنا القرون ، وتركنا البلاد العربية ، بحكامها الأمجاد ، الى الحكام المسلمين فى الهند مثلا ، نجد لبعضهم صورا حية كريمة من صور المساواة تعيد الى أذهاننا صورها فى العصر الاسلامى الأول ..

فهذا « محمد تخلق » على رغم شدته وعسفه نراه كما يحكى ابن بطوطة عنه ـ يستجيب لطلب القاضى ، فيمشى على قدميه مجردا من مظاهر السلطان ، حتى يحضر أمامه ، ليستمع دعوى أقامها عليه رجل من كبار الهنود ، لأنه قتل أخاه بغير حق ، فيحكم عليه القاضي وينفذ حكمه ..

وأعجب من هذا ما حكاه : من أن صبيا من أبناء الأمراء ادعى عليه أنه ضربه من غير موجب ورفع أمره للقاضى فيحكم عليه بأن يرضيه ، والا أخذه بالقصاص ؛ يقول ابن بطوطة : ، فشاهدته يومئذ وقد عاد لمجلسه واستحضر الصبى وأعطاه عصاه وقال له : وحق رأسي لتضربني كما ضربتك ، فأخذ الصبى العصا ، وضربه بها احدى وعشرين ضربة ، حتى رأيت الكلاه « القلنسوة » قد طارت عن رأسه .

وإذا تركنا محمد تغلق وذهبنا إلى كجرات ، وملوكها الصالحين وقفنا عند حادثة رائعة وقعت للسلطان « مظفر الحليم الكجراتي » .

فقد ذكر الآصفي في تاريخه أن تاجر خيل خاصمه عند القاضي فخرج اليه ماشيا ، حتى اذا حضر عنده ، لم يتحرك من مجلسه ، ونصحه ألا يترفع عن خصمه ، ويجلس معه ، وهو مطيع لأمر القاضي — فلما حكم عليه بدفع ثمن الخيول للتاجر ودفعها اليه ، قال القاضي للتاجر هل بقيت لك دعوة عليه ، فقال لا .. وحينئذ قام القاضي من مجلسه وسلم على السلطان وقدم له فروض الطاعة ، ملتمسا منه العفو عن معاملته في مجلس القضاء ، فقام السلطان وأخذ بيد القاضي وأجلسه في مكانه وجلس بجانبه وشكره على عدالته ، وغلظ تيمينه على خصيمه وقال له : لو لم تفعل هذا وراعيتني لإنتصفت للعدالة منك ، وجعلتك كآحاد الناس ، فجزاك الله عنا وعن الحق خيرا .. فمثلك يكون قاضيا .. فتهلل وجه القاضي وأثنى عليه وقال له ، ومثلك يكون سلطانا

.. تلك بعض شواهد من الصور العملية للمساواة في الإسلام كانت ثمرة التربية الاسلامية في نفوس الملوك والقضاة .. وهي تنطق بما للاسلام من فضل في تقرير هذا المبدأ السامي والعمل عليه

ولازال الاسلام ينادى بالحرص على هذا المبدأ ، وإن شذ عنه أناس من المسلمين ، لم يتربوا التربية الاسلامية الحقة .. لكن هذا لا يعد عيبا الا في المسلمين أنفسهم الذين يتركون جمال الخلق ، ويتبعون هوى النفس والشيطان ، والمبادىء المستوردة الدخيلة ، ولعلنا بهذا نكون قد اعطينا للقارىء صورة عن جهود الاسلام والمسلمين الصادقين ، لتقرير هذا المبدأ في الحياة ، حتى يسعد الناس بها ، ويعيشوا آمنين مطمئنين.

وانتقل بعد ذلك الى البحث عن المساواة فى ظل المدنيــــة الغربية ، التى أكثر اهلها وغير أهلها من التحدث عن فضائلها ، وديمقراطيتها ، والتى يحرص أهلها ، ومن اغتربها على الاشـــــادة بمزاياها وتصويرها فى صورة المثالية الفاضلة ، وتصوير انفسهم بأنهم أرقى الناس وأفضلهم ·· فى الوقت الذى ينكرون فيــــه على غيرهم أى رقى وفضل ·

ومن الخير أن نقرر هنا أن حضارة أى عصر أو أية أمة ،لاتقاس بظواهرها من الاختراعات والصناعات فقط (بل تقاس أولا بالروح التى تسود أهلها ، وبالمبادىء التى يسيرون عليها وتشكل حياتهم الخلقية ، ومعاملتهم لغيرهم من الناس ·

وهذا أمر طبيعى ، فان قيمة الفرد منا مرتبطة اولا بخلقــة وروحه وتعامله مع الناس ، لابشكل جسمه ، وقوته أو ضعفه وحسنه أو قبحـــــه ، وكذلك الحضارة ·· فميزاتها روحها ، ومايسيطر عليها من اخلاق ومبادىء ومعاملات ·

وعلى هذا الاساس ، ننظر الى المدنية الغربية ، غير مخدوعين بما أنتجته من مصنوعات ومخترعات ، اذ ليس المقام مقام تفضيل بين صناعة وصناعة ، ولكن المقام مقام تفضيل بين مبدأ ومبـــــدأ وحياة وحياة ، ومعاملة ومعاملة · فأكواخ فى صحراء يعيش أهلها على خلق كريم أسعد وأفضل من مدنية ذات صناعة وحضـــــارة يعيش أهلها فيما بينهم كالذئاب ·

ولقد رأينا الغرب يدعى أنه الذى عرف العالم معنى المساواة وأن الثورة الفرنسية هى التى قررت هذا المبدأ ، فالى أى مــدى صح ادعاؤهم ؟

ولكى نجيب على هذا السؤال يجب أن نلقى نظرة على معاملاتهم فيما بينهم ومعاملتهم للاخرين من غير جنسهم ·

مما لاشك فيه أن فكرة تفضيل رئيس الدولة وجعله فوق القانون ، لايسأل عما يفعل فكرة تملأ دساتير الغرب ، وتقوم عليها نظمهم ، واقتبست الدول الشرقية التى ارادت ان تتشبه بالغرب ، هذه الأنظمة فى دساتيرها ، فأصبح ينص فيها على أن الحاكم لايخضع لحكم ، وانه فوق القانون ، وكان وجود مثل هذا المبدأ فى الأنظمة والدساتير ، داعيا لفساد كثير من الحكام الذين لم يهذبهم دينهم ولم يخشوا ربهم ولاشعوبهم ، حين لم يجدوا قانونا يردعهم ويردهم ، فانفتح باب الشر على الدول من حكامها ، والناس على دين ملوكهم ٠

وعلى عكس هذا ، قانون الاسلام الذى يجعل الحاكم والمحكوم سواء أمام شرع الله ، بحيث يعاقب على أى عمل يقترفه ، كأى فرد من رعاياه ــ كما رأينا امثلة ذلك فيما تقدم ٠

أما معاملة الغربيين لغيرهم من الشعوب المغلوبة على أمرها فأمرها معروف ، اذ انهم يجعلون أنفسهم فى طبقة أعلى من طبقة الشعوب المحتلة التى قضى عليها سوء حظها ، بأن يحكمها هؤلاء الغربيون ، فهم يستحلون أكل أموالهم ويستحلون دماءهم ، ويجعلون لأنفسهم حقوقا لايعطونها أهل البلاد الاصليين ٠

ولست فى حاجة الى التفصيل فى هذا الموضوع ، فان القراء يعرفون جيدا ما فعله الانجليز فى مستعمراتهم منذ جاءوا اليها

وما فعلوه هم والفرنسيون والهولنديون وغيرهم فى أمم الشرق المستعمرة من قتل وعسف وتشريد وامتهان ٠ ويكفى فى هذا مانعرفه من انهم كانوا يكتبون على نواديهم الخاصة بهم فى الصين والهند ممنوع دخول الكلاب والصينيين أو الهنود ، وأحيانا كانوا يسمحون للكلاب ولا يسمحون لأهل البلاد ٠

.. ونضع بجوار هذا ماكان يعامل به المسلمون الجاكمون رعاياهم من الدول المفتوحة، من العدل والرأفة ، وعدم تمييز الفاتحين العرب عليهم . وقد قدمنا في هذا مثلا رائعة من تصرفات الولاة المسلمين ، في البلاد التي فتحوها ، وقولة عمر بن الخطاب لعمرو بن العاص « أيا عمرو متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا »!

وهذا هو الأساس العادل الذى تقوم عليه دولة الاسلام . فأين من هذا العدل ، ما تفعله الدول الغربية فى الأمم المغلوبة على أمرها ومع ذلك لايستحون ، فيدعون أنهم أهل الرقى والتمدن

ونخطو بعد ذلك خطوة أخرى لنرى كيف فرق هؤلاء بين الناس على أساس الوانهم فجعلوا اللون الأبيض ميزة كبرى ، لصاحبه مهما كان تافها ، بينما جعلوا اللون الأسود لعنة على صاحبه ، مهما كان عليه من خلق وعلم وفضل ، واشتدوا وقسوا فى ذلك حتى على اخوانهم فى الوطن .

والامثلة على ذلك كثيرة قائمة للآن فى افريقيا وفى جنوبها على الاخص ، وفى الولايات المتحدة .

فقد جعل المتمدنون البيض لانفسهم ميزات لايتمتع بها السود ، وحرموا عليهم أن يخالطوهم فى المدارس والمركبات العامة من السيارات والقطارات ، وفى المقاهى ودور السينما والمساكن وغير ذلك ، فخصصوا للبيض مدارس وسيارات ومقاهى ودور للسينما ومساكن لايجوز للاسود ان يقترب منها ، حتى لاينجسها ، واذا حاول أحد من السود ان يركب سيارة أو يدخل سينما أو فندقا أو مقهى ، أو مدرسة للبيض انزلوا به أقصى العقاب ، لأنه تجرأ على اسياده البيض ! واذا قتل الابيض رجلا من الملونين فأنه ينجو من القصاص ، اذ لاقيمة عندهم لرجل

أسود ملون ! واذا تجرأ ملون ونظر الى امرأة بيضاء فجزاؤه القتل لجرد النظر ، اذ كيف يمد بصره الى جنس أبيض

ولايجوز للأسود أو الملون أن يتعلم تعلما عاليا كالبيض ، كما لايجوز له أن يصل الى المراكز الكبيرة ، لأن الملونين في نظرهم قد خلقوا لخدمة البيض ، كما لايجوز اذن أن يرتقوا الى أماكنهم ، بل عليهم أن يظلوا عبيدا وخدما !!

وأهل الهند وباكستان يعرفون تماما مافعله الانجليز حين جاءوا الى الهند مما يصوره مولانا حسين أحمد مدني شيخ الاسلام والهند في كتابه « نقش الحياة » فيقول بعد أن أورد أقوال الانجليز المؤرخين في ذلك : « هذه الشهادات المذكورة ومثلها كثير ، تظهر أن الانجليز احتقروا أهل الهند بشكل لانظير له فى العالم ، حتى كانوا يستبيحون دماءهم وكانوا يميزون بينهم وبين الهنديين فى عربات السكك الحديدية ، والمسارح والملاهي ، والسيارات ، والمنتزهات.

واذا كان أهل الهند وباكستان يعرفون هذا من التاريخ القريب فانهم يعلمون كذلك مايحل باخوانهم الهنديين الآن ، في جنوب أفريقيا وشرقها من ظلم وجور ، لالشيء الا لأن لون بشرتهم ليس بأبيض خالصا ، وكان هذا هو ذنبهم وعيبهم لكي تعاملهم الدولة هناك معاملة ظالمة فاجرة بهم وتميزهم من سكان البلاد الاصليين

ففى جنوب افريقيا ٢٠ ٪ من السكان البيض الذين جاءوا من أوربا فحكموا البلاد ، بينما فيها ٨٠ ٪ من سكان البلاد الاصليين ومن الهنديين المهاجرين ، واستطاعت الأقلية أن تتحكم وتجعل لنفسها ميزة على الأكثرية بواسطة الدولة الانجليزية الحاكمة

وقد أثارت هذه المعاملة السيئة البشعة ثائرة الزعيم «غاندى» فى عهد شبابه ، فقرر أن ينتقل الى جنوب افريقيا ليدافع عن اخوانه الملونين ، ويرد اليهم حقوقهم وكرامتهم ، ولقى هو هناك من الاهانات ما جعل قلبه يغلي بالحقد طول حياته ، على المستعمرين الغربيين ، وقضى شطرا من حياته هناك ، للدفاع عن هؤلاء المساكين

وفى هذه السنين بعد ان استقلت الهند اخذت على عاتقها مهمة الدفاع عنهم ، فرفعت أمرهم الى هيئة الامم المتحدة لكى تنصفهم ، وقام « مستر كريشنا مينون » بالدفاع عنهم ، وشرح قضيتهم حتى حكمت هيئة الامم بانصاف هؤلاء ، ولكن حكومة جنوب افريقيا المكونة من البيض ، رفضت أن تخضع للامم المتحدة وامتنعت عن انصاف اكثرية السكان من الملونين .

وقد جاء فى التقرير الذى قدمه الوفد الهندى للامم المتحدة وصف حالة هؤلاء الملونين نقتبس منه هنا بعض ماجاء فيه حتى لا يكون هناك مجال للشك ، مما يحتويه من معلومات قال : ان الموارد المعدنية بأكملها ، ومعظم الأراضى الزراعية يحتفظ بها الأوربيون الذين لايزيدون على ١٢٪ أما غير الأوربيين فانهم يوضعون قسرا فى (معازل) تذكر المرء بحديقة الحيوان .

ثم قال : ان التجارة فى المناطق المخصصة للأوروبين محرمة على غيرهم ، وبالرغم من المكاسب الهائلة التى يحصل عليها الأوربيون فان أصحاب البلاد الاصليين ، لايكادون ــ يحصلون على أي نصيب من هذه الثروة الهائلة ، التى تجنى من عرقهم وكدهم .

ثم قال : أن الصورة فى ميدان التعليم ليست أقل سوادا من غيرها ، فان مناطق الأهالى تخلو من المدارس الابتدائية الكافية

ومستوى المدارس الابتدائية القليلة بالغ الضعف ، بسبب كثرة القيود التى يفرضها المنهاج على العلم ، ومنعه من تناول مسائل بالغة الكثرة والاهمية ، فى كل ميادين الثقافة »

ثم ختم بيانه بقوله « ولا حاجة بى الى أن أذكر أنه ليس لغير الأوربيين أية حقوق مدنية أو سياسية من أى نوع ، فهم ضحايا أبشع لون من ألوان التمييز العنصرى فى العالم بأسره » هذه مقتطفات من مذكرة الوفد الهندى للأمم المتحدة ، تبين بجلاء مقدار الظلم الذى يصبه الأوربيون على اهل البلاد •

وهؤلاء الأوربيون أصلهم من المجرمين والمتشردين ، الذين طردتهم بلادهم ، التى لم يجدوا فيها قوتا لهم ، فهاجروا لهذه البلاد منذ حوالى ٣٠٠ سنة ، من الهولنديين والانجليز وبدءوا يتحكمون فى أهل البلاد بمساعدة دولهم الاستعمارية ، وهم نسبة قليلة جدا لكنهم اصبحوا حكاما •

وقد أصدرت حكومة جنوب أفريقيا منذ سنوات قانونا يقضى بأسكان الملونين فى منطقة واحدة بعيدة عن العمران ، وأجبروا كل من كان يسكن فى المناطق التى خصصت للاوربيين على الخروج منها ، وترك بيوتهم ومحلات تجارتهم ، التى مكثوا فيها هم وآباؤهم وأجدادهم من قبل عشرات السنين••

وأرسل لى بعض أصدقائى من جنوب افريقياومن متخرجى دار العلوم « ديوبند ، بالهند » مكتوبا يتحدث فيه عن المصائب التى تعرض لها الأهالى هناك بسبب هذا القانون ، وأرسل لى معه صورا للنساء المسلمات يقرأن القرآن ويبتهلن الى الله ، انيرفع عنهن هذا الذل ، وصورا أخرى لرجال ، وهم فى نهاية الجزع والحزن لهذا القانون ورجال الحكومة يحاولون اخراجهم ، وهم

متشبثون ببيوتهم ، ودكاكينهم ويقولون : إما ان نبقى أو نموت هنا ! . كما أصدرت الحكومة قانونا يحرم وراثة الأبناء لمحلات آبائهم التجارية ، وهذا سيؤدي حتما الى حرمان الاهالي بالتدريج من الاشتغال بالتجارة ، وجعلها كلها في يد الأوربيين !

ولعل ماهو أشد من ذلك فظاعة وتماديا في الظلم ، أن حكومة جنوب أفريقيا أصدرت قانونا في شهر أبريل ١٩٥٥ يحتم على مدارس الملونين تعليم طلابها « أنهم خلقوا من طينة أحط من طينة البيض ، وأن عليهم أن يدركوا أن وضعهم الطبيعي في هذه الحياة هو أن يكونوا مسودين للبيض . »

فلما احتج الملونون على ذلك ، وامتنعوا عن ارسال ابنائهم للمدارس المخصصة لهم أسرعت الحكومة باغلاقها ، ولما لجأ الملونون الى افتتاح مكاتب سرية لتعليم أولادهم قامت الحكومة بمحاربتهم وسخرت البوليس في البحث عن هذه المكاتب ومعاقبة القائمين بها عقابا صارما .

ولم نر — كما يقول البيان الهندي السابق — معاملة أبشع من هذه المعاملة ، ولاتفرقة أسوأ من هذه التفرقة ، ويحدث ذلك من الرجال البيض الذين يدعون الرقي والحضارة ، بل ويفعلون ذلك باسم الرقي والحضارة .

أرأيت أخي كيف تكون حضارتهم ، وكيف يكون رقيهم؟! حضارة تقوم على عمد من الظلم والعسف واهدار كرامة الانسان .

ومنذ سنتين شغلت انجلترا — حكومتها وصحفها وبرلمانها — ومعها العالم بحادثة بسيطة في ذاتها ، ولكنها كانت في نظر السادة الانجليز حادثة عظيمة تستحق كل هذا الاهتمام ، فقد أصيب فيها الشرف البريطاني بما دنسه ولوثه !! ومن حق الانجليز ان

يغضبوا ويهيجوا ويهددوا بأبطولهم وجيوشهم اذا مس الشرف البريطاني !! ولم تخرج هذه الحادثة عن زواج تم بين شباب افريقى أسود ، وبين انجليزية تعمل على الآلة الكاتبة ، وكان الشباب زعيم احدى القبائل فى افريقيا ، ويتعلم فى « اوكسفورد » اباح له الانجليز التعليم فى جامعتهم ، لكى يشب فقط على حبهم وحب ثقافتهم ويكون عونا لهم فى بلاده ، ولكنه حين تجرأ ، فتزوج بمن تحبه ويحبها ، هاجت الامبراطورية ، وماجت ، وهاجت معها الحكومة المتوحشية لجنوب افريقيا ، التى عرفتها سابقا ، ولم يبال الزوجات بهيجان الامبراطورية وتوابعها ، فأتما زواجهما ، وسافرا الى قبيلته الصغيرة فى افريقيا ، ولكنه لم يستقر هناك مع زوجته ، فقد اخذ الانجليز يدبرون له المكائد واستدعوه الى لندن مع زوجته ، ولكنها رفضت ، وآثرت أن تبقى وسط قبيلته ، حتى تضع مولودها ، وسافر هو الى لندن ، وهو لا يظن ان الانجليز سيلعب بهم الغرور والجنون ، الى الحد الذى يجعلهم يقررون نفيه عن بلاده ، وعدم عودته لزوجته لمدة خمس سنوات ، والى الحد الذى يجعلهم يصبون العذاب على أفراد قبيلته الذين التفوا حوله ، ليحموه هو وزوجته من عسف المتجبرين ، كان يفكر فى كل شىء الا هذا الذى صدر عن الانجليز السادة المتحضرين !!

كل هذا لأن شابا اسود قد تزوج بانجليزية بيضاء !! ولم يشفع له أنه من زعماء قبيلته ، وأنه من متعلمى (أوكسفورد) وان الانجليزية ليست من الاميرات ، ولا من الأسر العالية عندهم ولكنها من عامة الشعب ، فقيرة تكسب رزقها من العمل على الآلة الكاتبة ، وأنها احبته كما أحبها ، ورفضت ان تستجيب لرغبة حكومتها ، وتنفصل عنه !! كل هذا لم يوقف الانجليز عن غرورهم وكيف ، وقد أهين الشرف البريطانى ، حين تزوج الأسود من البيضاء !؟

وحين قرأنا وسمعنا عن هذه الحادثة تذكرنا المبادىء الاسلامية السمحة القائمة على المساواة ، وعدم التفرقة بين الناس لأجل ألوانهم وأنسابهم ، وتذكرنا كيف زوج القرآن والرسول زينب بنت عمة الرسول لزيد بن حارثة مولى الرسول ، وكيف زوج الرسول امرأة قرشية فاضلة لأسامة ابن مولاه زيد ، وكيت ـ وكيت مما سبق الحديث عنه ، ورأينا منه احترام الاسلام للقيم الانسانية ، بغض النظر عن اللون والجنس والنسب ، وكيف أن الملونين الذين يستعبدهم الغرب ، ويضطهدهم ويحتقرهم ، قد ارتقوا فى ظل الاسلام الى مكان الصدارة والقيادة .

واذا تركنا أفريقيا ، وذهبنا الى أمريكا ، وبخاصة الى الولايات المتحدة ، التى تعتبر نفسها أعظم دولة فى العالم الآن ، والتى تتزعم ما يسمونه بالعالم الحر !! رأينا فى معاملاتها لفريق من أبنائها ما يندى له جبين الانسانية خجلا ، لقد جاء الأوربيون كذلك الى أمريكا ، بعد اكتشافها مصادفة ، كما ذهبوا الى جنوب أفريقيا ، وكانوا من المجرمين واللصوص ، وقطاع الطرق ، ومن ترغب الحكومات الأوربية فى نفيهم من بلادها ، لغضبها عليهم ، وبدءوا يستغلون البلاد ، فكثرت الثروة لديهم ، وطمع غيرهم من الأوربيين فى الثروة ، فهاجر اليها وكانت لهم وسائلهم وعلومهم ، فسيطروا على البلاد ، وكانت انجلترا تحكم الجميع ، وشعر الرجل الأبيض بقيمته ، وأخذ يضطهد سكان البلاد الأصليين ، وبعد أن تخلصت الولايات من استعمار الانجليز ، ظل بعض السكان يضطهد البعض الآخر ، ويحرمه كل ميزات الحياة .

فالبيض فى أمريكا يعاملون السود والملونين فيها تماما ، كما يعامل البيض السود فى جنوب أفريقيا ، فهم محرومون من حق الحياة الكريمة ، محرومون من مجالسة البيض ، أو دخول أماكنهم ، أو الجلوس فى مقاعدهم ، أو الاشتراك معهم فى مدارسهم ، محرومون

حتي من حق الدفاع عن أنفسهم ، دماؤهم مهدرة ، ولا كرامة لهم ، مع أنهم أمريكيون يحملون الجنسية الأمريكية ، كما يحملها ايزنهاور وكنيدى ، وحكام أمريكا ، ولكن شقاءهم جاء من لون بشرتهم ، التى لم تكن بيضاء ، فقط لون البشرة !! فهو إلفاصل بين السعادة والشقاء ، ولم نجد انحطاطا فى التفكير والخلق ، مثل هذا الانحطاط الذى يتمتع به السادة الغربيون ، الذين يجعلون لون البشرة هو ميزان الفضل ، ويهدرون كل العوامل الاخرى ، يهدرون عقل الاسود وعلمه وخلقه وشجاعته ، وكل فضيلة له ، لأن لونه غير أبيض مثل الأوربيين !! فلو كان من الذين لفحتهم الشمس بحرارتها، فكان لونهم قمحيا ، فانهم ، ملونون فى نظر السادة المتحضرين لا يستحقون أى احترام ، وليس لهم الحق فى أن يجلسوا فى السيارات ، والقطارات ، والمقاهى والسينمات ، وكل الأماكن التى خصصت للبيض ٠

ولقد روى لى صديق من المصريين ذهب مع أحد وزراء المملكة السعودية ، وكان من الأمراء واصطحب معه تابعا ، لون بشرته يميل الى السواد ٠٠ حكى لى ما وقع للوزير الأمير من متاعب ومصاعب ، بسبب التفريق العنصرى القائم على لون البشرة ، فقد كان الوزير يفاجأ فى بعض الأماكن التى يزورها بمنع تابعه الملون عن الدخول معه ، أو السفر معه ، لأنه ملون ومحرم عليه دخول هذه الأماكن !! ودهش الوزير المسلم العربى الذى يحترم تابعه ، ويأكل معه ويجلس معه ، نعم صدم بهذه المعاملة السيئة التى تعاملها دولة متحضرة لبعض الناس ، لأن لونهم غير أبيض !! سواء أكان هؤلاء الملونون من أهل البلاد ، أم من زوارها ، فالملون نجس ، وقذر ، سواء أكان من أمريكا أم من أى مكان آخر — ولايجوز له أن يدنس بقدمه أو حتى بوجهه مواطىء أقدام السادة البيض !! ٠ ولازلنا نذكر الضجة التى قامت فى احدى ولايات أمريكا أو الفضيحةالتى

اقترفتها ، وعرفها العالم اجمع وذلك بسبب دخول تسعة من الطلاب السود مدرسة مخصصة للبيض ، لمنع السود من دخول المدرسة ، لماذا ؟ ... لأن شرف البيض الصغار وآبائهم البيض الكبار قد أهين وديس ، بجلوس هؤلاء السود في المدرسة بجانب البيض !!

والأمثلة التي نقرؤها في صحفنا كثيرة عن هذه التفرقة القائمة في أمريكا فقد نشرت جريدة « الجمهورية » في عددها الصادر في ١٠ اكتوبر سنة ١٩٥٧ نبأ حادثة وقعت لوزير مالية غانا في احدى مدن الولايات المتحدة تحت هذا العنوان :

« طرد وزير مالية غانا من مطعم أمريكي – الوزير الأفريقي يحتج رسميا على الحادث » قالت نقلا عن التلغرافات الخارجية من أمريكا :

صرح « جبيد ماه » وزير مالية غانا أمس أن أحد المطاعم في مدينة « دفر » الأمريكية رفض أن يقدم اليه الطعام ، بحجة أن الملونين غير مسموح لهم بتناول الطعام فيه ، وقال « جبيد ماه » انه شديد الدهشة لهذا التصرف ، وأنه سيرسل الى « دلاس » خطاب احتجاج على طرده من المطعم ، كما أنه سيقدم الى السفير الأمريكي احتجاجا رسميا عقب عودته الى بلاده .

ووصف الوزير الأفريقي الحادث بقوله : انه استقل سيارته وسكرتيره الخاص ، وهو زنجي أيضا لحضور حفل تكريم إقامته له كلية مارنيبلاند ، وقد توقفت في الطريق ، لتناول الطعام في مطعم ، وطلبت كوبين من شراب البرتقال ، فاحضرتهما الخادمة داخل غلاف ، ولما قال لها أنه يريد أن يتناولهما داخل المطعم ، ردت عليه : ان تناول الطعام في المطعم غير مسموح به للملونين ، فأعرب الوزير للفتاة عن دهشته وقال : كيف يحدث هذا في أمريكا ؟!

.. ومضت الفتاة ، فاستدعى مدير المطعم ، وكشف له الوزير عن شخصيته ، ولكن المدير أعاد عليه ماقالته الخادمة ، وطلب اليه مغادرة المطعم ، وقال الوزير معقبا على هذا الحادث انه لا يفهم كيف يعامل فى أمريكا هذه المعاملة ، مع أن نيكسون نائب رئيس جمهورية أمريكا وأدلاى ستيفنسون المرشح الديموقراطي لرياسة الجمهورية ، قد تناولا الطعام فى منزله بمدينة « أكرا » عاصمة غانا .

.. وللوزير الحق فى أن يصدم من هذه المعاملة ، لا من أجل شخصه ، بل من أجل المبدأ فى حد ذاته ، ولو أن مقامه كوزير ، لم يستطع أن يحطم الحواجز الموضوعة أمام أمثاله .

.. واذا كان قد رأى فى منزله تحطيم هذه الحواجز ، فذلك شيء لايدل تماما على العقلية الامريكية السائدة ، لأن هؤلاء ساسة وجاءوا لغرض سياسي خاص ، وكثيرا ما نسمع عن أمثال هذا من مقابلة الرئيس الأمريكي لأحد السود ، واحتفاله به ، الى غير ذلك من المظاهر ، التى تعتبر شاذة وخارجة على العقلية الأمريكية المتحكمة فى بلادها .. سواء أكانت فى الشعب أم فى الحكام الآخرين الذين لا تضطرهم السياسة الى المصانعة والتنازل القهرى عن عقلياتهم ..
واليك عينة أخرى نشرتها صحفنا تحت هذا العنوان :

.. « التفرقة العنصرية فى الجيش الأمريكي » قال النائب الأمريكى الزنجى « آدم باول » « ان التفرقة العنصرية لا تزال موجودة فى القوات الأمريكية الموجودة فى فرنسا وشمال أفريقيا وايطاليا ، وأسبانيا ، وانجلترا » .

.. وقد أدلى « باول » بهذا التصريح عقب عودته من رحلة استغرقت سبعة أسابيع ، زار خلالها القواعد العسكرية الأمريكية فى الخارج .

.. وقد وضع النائب الزنجى تقريرا سيرسل الى البيت الأبيض عن محادثاته مع الجنود الأمريكيين خلال هذه الرحلة .

وأقلام الكتاب عندنا لا تنفك عن التعليق على مثل هذه الحوادث تعليقات مرة ۰۰ واليك أحد هذه التعليقات تحت عنوان :

« أسئلة بلا جواب » !! قال :

قتل أخوان من الأمريكيين البيض صبيا زنجيا فى الرابعة عشرة من عمره ، فى ولاية مسيسبى الأمريكية ثم ألقيا بجثته بعد تشويهها فى النهر ، لأنه قد لمح زوجة أحدهما فى دكان بقالة ، وابدى اعجابه بجمالها عن طريق التصفير !

وبما أن سكان الولاية التى وقعت فيها الجريمة من البيض الذين يعتبرون قتل الزنوج من حقهم ، ولا يرون فيه جناية تستحق العقاب، فقد تحمسوا للدفاع عن الأخوين القاتلين ، وجمعوا من بينهم عشرة آلاف دولار ، لدفع أتعاب خمسة من كبار المحامين ، عهدوا اليهم بالدفاع عنها ٠

وانتهى الموضوع بتبرئة القاتلين !!

والمهم فى هذا الشاهد هو تبرئة القاتلين ، اذ أن هذا يعتبر اقرارا للقتل من هيئة قضائية تحكم باسم القانون !!

وفى أغسطس ١٩٥٥ نشرت الجمهورية تعليقا للأستاذ « عميد الامام » على ما يجرى فى جنوب أفريقيا تحت عنوان « التعليم جريمة » قال :

« هل تعلمون أن التعليم ـ التعليم الابتدائى العادى الذى لا يتجاوز تلقين الطلبة مبادىء القراءة والكتابة والحساب والجغرافيا والتاريخ ۰۰۰ الخ يعتبر جريمة فى احدى الدول الأعضاء فى الأمم المتحدة ، تماما كتهريب المخدرات أو السطو على المنازل ، أو حيازة المسروقات !! ، وأن من يضبط متلبسا بممارسته ، يعاقب بموجب

قوانين هذه الدولة ، بالحبس مدة لا تقل عن ستة أشهر ، ويدفع غرامة تبلغ حوالى الخمسين جنيها !!

ان هذا يحدث فى اتحاد جنوب أفريقيا ، ومنذ شهر أبريل الماضى ، يطارد بوليس هذه البلاد السعيدة !! من يجرؤ على ارتكاب هذه الجريمة ، كما يطارد القتلة واللصوص ، وسفاكى الدماء ، وسائر الخارجين على القانون ٠

ولنتابع القصة الكئيبة من أولها ٠٠

منذ تولت وزارة « يوهانس ستريدوم » فى جنوب أفريقيا منذ اكثر من عام ، وهى جادة فى تنفيذ برنامجها الذى أعلنته ، والذى فازت فى الانتخابات التى جاءت بها الى الحكم على أساسه ٠

وهذا البرنامج يتلخص فى حرمان أغلبية سكان البلاد من الملونين ، من جميع الحقوق البسيطة ، التى كانت لهم فى بلادهم ، وتأكيد سيادة الأقلية البيضاء التامة ، وتحكمها المطلق فى جميع شئون البلاد ، ومصائر سكانها ، وعدم الاحجام عن استعمال العنف فى تنفيذ هذه السياسة ٠

بل أن عدم التردد فى اللجوء الى العنف لاخضاع الملونين واذلالهم ، قد اعتبر من مفاخر هذه الحكومة ، وأكسب رئيسها الهمام لقب « النمر الأبيض » بين مؤيديه وبين المعجبين بقسوته ، وشدة بطشه من البيض ٠

وكان من بين الاجراءات العديدة ، التى قررت هذه الحكومة اتخاذها لوضع الملونين فى المكان الذى حددته لهم ، أنها أصدرت قانونا جديدا للتعليم فى شهر أبريل الماضى ، يحتم على مدارس

الملونين تعليم الطلبة أنهم قد خلقوا من طينة أحط من طينة البيض ، وأن عليهم أن يدركوا أن وضعهم الطبيعى فى هذه الحياة ، هو أن يكونوا مسودين للبيض .

واحتج عدد كبير من الملونين على هذا الاجراء ، بالامتناع عن ارسال أبنائهم للمدارس ، فكان رد الحكومة هو أن أغلقت على الفور كل مدرسة انقطع طلبتها عن الحضور اليها .

وبين يوم وليلة أصبح عشرات الألوف من الصغار محرومين من المدارس . وعملت هيئات الملونين ومنظماتهم الوطنية على انشاء شبكة من المدارس السرية فى طول البلاد وعرضها تعمل على انتشال أطفال الملونين من هذه الأزمة التى أرادتها لهم حكومة البــــلاد فى الخفاء ، بعيدا عن عيون رجال البوليس الســــاهرة على تنفيــذ القانون .

بينما نشطت الحكومة بدورها لمطاردة القائمين بهذا التعليــم السرى .. وأصبحت قطع الطباشير ، وزجاجات الحبــــر ، وسائر الأدوات التى تستعمل فى التدريس ، من القــرائن التى يحـــرض البوليس على البحث عنها .. لاستخدامها فى اثبات الجريمة أمام المحاكم .

وكانت كل الأدلة التى استند اليها البوليس فى اثبات جريمة التعليم ، هى تلوث بعض أصابع الزنجى بالطباشير ، وضبطه بين مجموعة من الأطفال ، بينما كان يشير بيده الى الحائط الذى ادعى البوليس أن الزنجى كان يستخدمه « كسبورة » !!

كان هذا سنة ١٩٥٥ وقد حاولت الهند والأمم الحرة ، وفى مقدمتها الجمهورية العربية المتحدة اثارة هذا الموضـــوع فى الأمم المتحدة ، واستطاعت أخيرا أن تأخذ منها قرارا بادانة حكومة جنوب أفريقيا ومطالبتها بالتخلى عن هذه التفرقة العنصرية ، ولكن هذه

الحكومة سلوب في طريقها في عناد وغير مبالاة ، وآثرت الانسحاب من الأمم المتحدة على تنازلها عن التفرقة العنصرية ، مما يدلنا على مقدار تمكن هذه العقلية الشاذة وسيطرتها على نفوسهم ، وهذه الحكومة المؤمنة بالتفرقة العنصرية تتمتع بعطف وتأييد دول الغرب ، فضلا عن أن رجالها ينحدرون من سلالة أوربية ، ويعيشون بعقلية أوربية ، ولا يرون في عملهم أية غضاضة ، بل يرونه مثارا للفخر والاعتزاز .. ويضحون من أجله بعضويتهم في الأمم المتحدة ، وبكثير من الصلات الودية بينهم وبين دول حرة لم تقر تصرفها ، فقطعت علاقتها السياسية معهم ، ومنها الجمهورية العربية ..

إذن وهذه العقلية هي نتاج الحضارة الغربية سواء في أفريقيا أم في أوربا وأمريكا ، ترى ضحاياها في كل مكان ، ومع هذا يدعون أنهم متحضرون ، ومتقدمون ، وديموقراطيون !

فأين التحضر والتقدم والديموقراطية ، حين يهدرون قيمة الإنسان والإنسانية وكل فضيلة فيه لا لشيء إلا لأن بشرته ليست بيضاء ؟!!

وأين هم من الإسلام ومبادئه وحضارته ؟ أين هؤلاء من الإسلام والمسلمين ؟!!

لعلك — أيها القارئ — بعد ذلك تعرف تماما الفرق الشاسع بين حضارة الاسلام وحضارة الغرب ، وتدرك فضل الاسلام على الانسانية ، حين قرر هذه المبادئ السامية ، منذ نحو أربعة عشر قرنا وأقام على هديها مجتمعا إسلاميا سعيدا ، ولا تزال هذه المبادئ لامعة ، وصالحة لاقامة أسعد حضارة في هذا العالم ، لو عنى بها المسلمون في أنفسهم ومجتمعهم ، واقتبس منها الغربيون ، إن كانوا يريدون لأنفسهم سعادة حقيقية ، فيها راحة النفس وهدوء الضمير

ان المسلمين مسئولون فى كل مكان عن التبشير بهذه المبادىء ، وبيان فضلها للناس ، سواء فى ذلك الغربيون أم الشرقيون ، فان فى أمم الشرق ــ ولا سيما الهند وباكستان ــ تفرقة سـيئة بين أبنائها أيضا ، جعلتهم طبقات بعضها فوق بعض ، وهذه التفرقة موروثة من قديم ، وهى تفرقة بغيضة ، جعلت بعض الطبقـات ، تستعبد البعض الآخر وتعاملها كما تعامل الحيوانات ، وفى هذه البيئات يبرز فضل الاسلام وتتجلى مزاياه ٠

وعلى المسلمين قبل كل شىء ، أن يكونوا قدوة حسنة لغيرهم ، بحيث تسودهم روح المساواة التى جـاء بها الاسـلام ، نعم : على المسلمين ــ ولا سيما فى الهند وباكستان ــ أن يحاربوا كل نزعة تؤدى الى جعل المسلمين طبقات بعضها فوق بعض على أساس النسب، لأن الاسلام يبغض مثل هذه التفرقة ، ولأن المسلمين لو خضعوا لها بينهم لكانوا مثل غيرهم من أهل الأديان الأخرى هناك ، ولكانوا بسلوكهم هذا ، اسوأ دعاية للاسلام فى الوقت الذى نحتاج فيه الى بيان فضل الاسلام على غيره ــ ولاسيما فى هذه الناحية الحساسة ٠

ان العالم الآن يسير ويتطور نحو المساواة ، والشعوب تجاهد وتكافح لتنعم بهذه النعمة ، التى تمتع بها المسلمون ورعاياهم منذ أربعة عشر قرنا ، ولا زال أمام العالم جهاد طويل شاق ، ليبلغ هذه الدرجة التى كانت عليها الدولة الاسلامية الأولى ٠

فليفخر المسلمون اذن بدينهم ، وليعتزوا بماضـيهم ، على أن يعملوا ما وسعهم الجهد لاسترجاع هذا الماضى المجيد ، ونشر حضارة الاسلام حتى يسعد فى ظلها الجميع ٠

« والله يدعو الى دار السـلام ويهـدى من يشاء الى صراط مستقيم »